www.christianlib.com

عودة الابن الضال

بقلم / Henri J. M. Nouwen
ترجمته بتصرف / الأخت نادية حبيب

مجلس البطاركة
والأساقفة الكاثوليك
بمصر
معهد التربية الدينية
سلسلة كتيبات نور على الطريق
١٣

عودة الابن الضال

بقلم / Henri J. M. Nouwen
ترجمته بتصرف / الأخت نادية حبيب

عودة الابن الضال

بقلم : Henri J. M. Nouwen

ترجمته بتصرّف / الأخت نادية حبيب

قصّة أب وابنيه

« كانَ لِرَجلٍ اَبنانِ ، فقالَ لَهُ الأصغَرُ : يا أبي أعطِني حِصَّتي مِنَ الأملاكِ. فقَسَم لهُما أملاكَهُ. وبَعدَ أيّامٍ قَليلةٍ ، جمَعَ الابنُ الأصغَرُ كُلَ ما يَملِكُ ، وسافَرَ إلى بِلادٍ بَعيدَةٍ ، وهُناكَ بَدَّدَ مالَهُ في العَيشِ بِلا حِسابٍ. فلمَّا أنفَقَ كُلَ شيءٍ ، أصابَت تِلكَ البِلادَ مَجاعةٍ قاسِيَةٍ ، فوقَعَ في ضيقٍ. فلَجأ إلى العَمَلِ عِندَ رَجُلٍ مِنْ أهلِ تِلكَ البِلادِ ، فأرسَلَهُ إلى حُقولِهِ ليَرعى الخنازيرَ. وكانَ يَشتَهي أنْ يَشبَعَ مِنَ الخُرنُوبِ الذي كانَتِ الخنازيرُ تأكُلُهُ ، فلا يُعطيهِ أحدٌ. فرَجَعَ إلى نَفسِهِ وقالَ : كم أَجيرٍ عِندَ أبي يَفضُلُ عَنهُ الطَّعامُ ، وأنا هُنا أموتُ مِنَ الجوعِ. سأقومُ وأرجِعُ إلى أبي وأقولُ لَه : يا أبي ، أخطَأتُ إلى السماءِ وإلَيكَ ، ولا أستحِقُّ بَعدُ أنْ أُدعى لكَ اَبنًا، فعامِلْني كأَجيرٍ عِندَكَ.

فقامَ ورجَعَ إلى أبيه. فَرآهُ أبوهُ قادمًا مِنْ بَعيدٍ، فأشفَقَ علَيهِ وأسرَعَ إلَيهِ يُعانِقُهُ ويُقَبِّلُهُ. فقالَ لَهُ الابنُ : يا أبي ، أخطَأْتُ إلى السَّماءِ وإلَيكَ . ولا أستَحِقُّ بَعدُ أنْ أُدعى لكَ اَبنًا. فقالَ الأبُ لخَدَمِهِ : أسرِعوا ! هاتُوا أفخَرَ ثوبٍ وأَلْبِسوهُ ، وضَعُوا خاتَمًا في إصبَعِهِ وحِذاءً في رِجلَيهِ. وقَدِّموا العِجلَ المُسمَّنَ واَذبَحوهُ ، فنَأْكُلَ ونَفرَحَ . لأنَّ اَبني هذا كانَ مَيْتًا فعاشَ ، وكانَ ضالاً فَوُجِدَ. فأخذوا يَفرَحونَ.

وكانَ الابنُ الأكبرُ في الحَقلِ ، فلمَّا رجَعَ واَقتَرَبَ مِنَ البَيتِ ، سَمِعَ صَوتَ الغِناءِ والرَّقصِ. فدَعا أحَدَ الخَدَمِ وسألَهُ : ما الخَبرُ ؟ فأجابَهُ : رجَعَ أخوكَ سالِمًا، فذبَحَ أبوكَ العِجْلَ المُسَمَّنَ. فغَضِبَ ورَفَضَ أنْ يَدخُلَ. فخَرَجَ إلَيهِ أبوهُ يَرجو منهُ أنْ يَدخُلَ ، فقالَ لأبيهِ : خَدَمْتُكَ كُلَ هذهِ السِّنينَ وما عَصَيتُ لكَ أمرًا، فما أعطَيتَني جَدْيًا واحدًا لأفرَحَ بِهِ معَ أصحابي. ولكنْ لمَّا رجَعَ اَبنُكَ هذا، بَعدَما أكَلَ مالَكَ معَ البَغايا، ذَبَحتَ العِجلَ المُسَمَّنَ !

فأجابَهُ أبوهُ : يا اَبني ، أنتَ مَعي في كُلِّ حينٍ ، وكُلُّ ما هوَ لي فهوَ لكَ. ولكِنْ كانَ علَينا أنْ نَفرَحَ ونَمرَحَ ، لأنَّ أخاكَ هذا كانَ مَيِّتًا فَعاشَ ، وكانَ ضالاً فَوُجِدَ » .

(لو ١٥ : ١١-٣٢) .

تمهيد

لقاء بلوحة

القصّة تبدأ في خريف ١٩٨٣ في قرية تروسلي بفرنسا، حيث كنت أقضي بضعة شهور قليلة بالآرش ، في جماعةٍ تُقدِّم ملجأً لأشخاصٍ مُعاقين ذهنيّاً .

لقد أسّس « چان ڤانييه » الكندي الجنسيّة هذه الجماعة عامّ ١٩٦٤ ، وجماعة تروسلي هي الأولى بين أكثر من تسعين جماعة آرش منتشرة في العالم .

ذهبتُ يوماً لزيارة صديقتي « سيمون لاندرين » في جماعةٍ صغيرةٍ بالمركز . ونحن نتحدّث وقعت عيناي على لوحةٍ فنيةٍ كبيرةٍ مُعلّقة على باب حجرتها: رأيتُ رجلاً يرتدي معطفاً أحمر فضفاضاً يُلامس برقّة كتفيّ شاب راكعاً أمامه .

لم أستطع أن أُبعد عيني عنها ، انجذبتُ إلى الحميميّة التي بين الشخصين ، واللّون الأحمر الدافئ للمعطف ، واللّباس الأصفر الذهبي للشاب ، والنور السرّي الذي يحتويهما . لكن أكثر من كلّ هذا ، كانت يدا الرجل العجوز اللّتان تُلامس كتفيّ الشاب قد حملتني إلى آفاقٍ لم أُفكّر فيها من قبل .

لم أستطع أن أعطي أي اهتمام للحديث ، قلت لـ «سيمون» : « حدّثيني عن هذه اللّوحة » . قالت : « إنها لوحة لرامبرانت عن الابن الضال . هل تُحبّها ؟ » .

ظللتُ أنظر بإمعانٍ إلى اللّوحة ، وفي النهاية تمتمتُ : « هذا رائع ، بل أكثر من رائع ... جعلتني أبكي وأضحك في نفس الوقت... لا أستطيع أن أخبرِك عمّا أشعر به عندما نظرتُ إليها، ولكنها لمستني بعمق » .

قالت « سيمون » : « ربّما من الأفضل أن يكون لديك نسخة منها. تستطيع أن تشتريها من باريس » .

قلتُ : « نعم ، يجب أن يكون لديّ نسخةٌ منها » .

عندما رأيت لوحة الابن الضال ، كنت منهكاً جدّاً ، إذ كان لي ستة أسابيع أُحاضر في الولايات المتّحدة ، داعياً الجماعات المسيحيّة أن تفعل كلّ ما يُمكن لمنع العنف والحرب في أمريكا الوسطى .

كنتُ أكاد أموت من التعب ، أكثر ما كنتُ أستطيع أن أفعلهُ هو أن أمشي . كنتُ قلقاً ، أشعر بالوحدة ، مُتعَباً .

أثناء الرحلة شعرتُ كأنّني مُحاربٌ قوي من أجل العدالة والسلام ، أستطيع أن أواجه عالم الظُلمة بدون خوف .

لكن بعد ما انتهى كلّ شيء ، شعرتُ أنّني طفلٌ صغيرٌ ضعيف يُريد أن يرتمي في حضن أمّه ويبكي .

بمجرّد انتهاء هتافات التشجيع أو الاعتراض من المستمعين ، كنتُ أختبر الشعور المُضني بالوحدة ، ولذلك كنتُ أحيط نفسي بأصواتٍ مُضلّلة تعدني بالراحة العاطفيّة والجسديّة .

في هذه الظروف تقابلتُ مع لوحة « رامبرانت » الابن الضال على باب مكتب « سيمون » . قفز قلبي عندما رأيتُ اللّوحة . بعد مسيرتي الشّاقّة الطويلة ، حضن الأب الحنون والابن عبَّر عن كلّ شيء رغبتُ فيه في هذه اللحظة .

كنتُ حقّاً مُستنفَذاً بسبب السفريّات الطويلة ، وكنتُ أبحث عن بيتٍ أقدر أن أشعر فيه بالأمان .

عودة الابن للبيت كانت كلّ ما كنتُ أرغب فيه . لمدّة طويلة ذهبتُ مِراراً من مكانٍ إلى آخر ، أواجه ، أتضرّع ، ألوم ، وأعزّي.

الآن رغبتُ فقط أن أرتاح بأمانٍ في مكانٍ حيث أقدر أن أشعر بالانتماء ، والراحة .

حدث الكثير في الشهور والسنين المتتالية . وعلى الرغم من التعب الشديد كنتُ أرجع إلى حياة التدريس والسَفَر. وحضن الأب في لوحة رامبرانت لا يزال مطبوعاً في نفسي بطريقةٍ أكثر عُمقاً من أي تعبيرٍ مؤقّت من الدعم العاطفي .

رغم انشغالي مع أشخاصٍ كثيرين ، بالعديد من المسائل في أماكن مختلفة ، ظلّت عودة الابن الضال للبيت تُسيطر على تفكيري ، وتأخذ أهميّة أكبر في حياتي الروحيّة.

التوق للبيت الأبدي ، جعلني أكثر فهماً للوحة رامبرانت ، وجعل الرسّام نفسه رفيقاً ومُرشداً لي .

مرّ عامان منذ رأيت لوحة رامبرانت لأوّل مرّة ، تخلّيت فيهما عن التدريس في جامعة هارفارد ، ورجعت إلى الآرش في تروسلي ، وهناك أمضيت عاماً كاملاً.

الغرض من هذا التغيير هو تحديد موقفي من الحياة مع أشخاصٍ مُعاقين ذهنيّاً في جماعة من جماعات الآرش .

خلال هذه السنة الانتقاليّة ، شعرتُ بقربٍ خاصّ من رامبرانت وابنه الضال . وكنتُ أبحث أيضاً عن بيتٍ جديد.

قبل انتهاء العام ، أخذت القرار بأن أجعل الآرش بيتي الجديد، وأنضمّ لجماعة الفجر ، جماعة الآرش في تورنتو.

اللّوحة

قبل تَرْكْ تروسلي مباشرةً ، دعاني بعض أصدقائي لأنضمّ إليهم في رحلةٍ إلى الاتّحاد السوفيتي . ردّ فعلي المُباشر كان تعبيراً عن رغبتي في رؤية اللّوحة الأصليّة ، لأني أصبحت مهتمّاً بهذا العمل الرائع ، وقد عرفتُ أن النسخة الأصليّة موجودة في مدينة « سان بطرسبيرج » ، التي تغيّر اسمها إلى «لينينجراد» ، والآن استعادت اسمها الأصلي .

لم أكن أحلم أبداً أن يكون لديَّ الفرصة أن أراها عن قُرب ، وبالرغم من اشتياقي لمعرفة البلد الذي كان له تأثيراً قويّاً على أفكاري وعواطفي ، في معظم فترات حياتي ، إلاَّ أن هذا الاشتياق أصبح باهتاً بالمقارنة مع الرغبة في رؤية تلك اللّوحة التي كشفت لي عن رغبة قلبي العميقة .

بطريقةٍ ما ، شعرتُ أن رؤيتي لهذه اللّوحة ستسمح لي بالدخول إلى سرّ العودة لبيت الآب ، بطريقةٍ لم أعهدها من قبل.

رجوعي من محاضرةٍ مُرهقة إلى منزلي كان بمثابة العودة إلى البيت ، تَرْكْ عالم المعلّمين والطلاّب ، والعيش في جماعةٍ تخدم المُعاقين ذهنيّاً ، هو بمثابة العودة للبيت ، ومقابلة أشخاص من البلد الذي عزل نفسه عن بقيّة العالم بالحوائط وحواجز حراسة ثقيلة ، هذا أيضاً كان ، بأسلوبٍ خاصّ ، طريق العودة للبيت .

ولكن أبعد من كلّ هذا « العودة إلى البيت » تعني ، بالنسبة لي، السير خطوة خطوة نحو الواحد الذي ينتظرني بأذرعٍ مفتوحة ، ويُريد أن يضُمّني في عِناقٍ أبدي .

كنتُ أعرف أن رامبرانت يفهم بعمق هذه العودة الروحيّة للبيت . وكنتُ أعرف أنه عندما رسم الابن الضال ، كان قد عاش حياةً أبعدته عن بيته الحقيقي والنهائي .

شعرتُ أنه إذا استطعت مقابلة رامبرانت في رسمه للأب والابن ، اللّه والبشريّة ، الرحمة والبؤس في دائرةٍ واحدة من الحبّ ، سأعرف أكثر من أي وقتٍ مضى ما هو الموت وما هي الحياة .

الحدث

بعد أسابيع قليلة من زيارتي لـ « الأرميتاج » بـ « سان بطرسبيرج » وصلتُ إلى « الآرش » في « تورنتو » لكي أعيش وأخدم كراعي للجماعة . بالرغم أنّي أخذت عاماً كاملاً لكي أتبيّن دعوتي ، وأميّز إذا كان اللّه يدعوني للحياة مع أناسٍ مُعاقين ذهنيّاً ، كنتُ أشعر بالشكّ ، والتردّد ، والقلق عن إمكانيّة أن أعيش تلك الخبرة بطريقةٍ جيّدة ، مع أنني لم أعطِ أبداً أي اهتمام من قبل للمُعاقين ذهنيّاً .

وعلى العكس ركّزتُ كثيراً على طلبة الجامعة ومشاكلهم ، وتعلّمتُ أن أعطي محاضرات وأكتب كُتباً عن كيفيّة شرح الأشياء بنظام ، وعمل عناوين رئيسيّة وأخرى فرعيّة ، كيف أُجادل وأُحلّل. كانت لديّ أفكارٌ قليلةٌ عن كيفيّة التواصل مع رجالٍ ونساء لديهم صعوبة في النُطق ، وإذا تكلّموا فلا يعطوا أهميّة للمجادلات المنطقيّة الشيّقة ، أو الآراء المعقولة .

أعرف القليل عن إعلان إنجيل يسوع لأناسٍ يسمعون بقلوبهم أكثر من عقولهم ، وهم أكثر حساسيّة لما أعيشه وليس لما أقوله .

في أغسطس ١٩٨٦ كنتُ مقتنعاً بأني أتّخذتُ القرار المناسب، ولكن قلبي كان مملوء خوفاً ممّا ينتظرني. بعكس ذلك كنتُ مقتنعاً ، بعد أكثر من ٢٠ عاماً قضيتها في حجرات الدراسة ، بأنّه قد جاء الوقت لكي أثق في محبّة اللّه للفقراء بالروح ، بشكلٍّ خاصّ ومميّز ، وهذا رغم القليل الذي عندي لأقدّمه لهم .

من أوّل الأشياء التي عملتها بعد عودتي ، أنني بحثتُ عن مكانٍ مناسب لأعلّق صورة الابن الضال . لقد كانت مساحة المكتب مثاليّة . أينما جلستُ لأقرأ ، أو أكتب أو أتحدّث إلى شخصٍ ما، أستطيع أن أرى الحضن السرّي للأب والابن ، وهذا أصبح جزءاً حميميّاً في مسيرتي الروحيّة .

منذ زيارتي للأرميتاج أصبحتُ أكثر وعياً لأربع شخصيّات ، إمرأتين ورجلين ، واقفين حول المكان الفارغ بقرب الأب حيث يُرحِّب بابنه العائد. طريقتهم في النظر تتركك متعجّباً ، كيف يُفكِّرون ، أو يشعرون بما يُشاهدونه ، مما يسمح بتفاسير عدّة.

كلّما فكرتُ في مسيرتي ، أصبحت أكثر وعياً بطول المدّة التي لعبتُ فيها دور المُلاحظ .

لسنين عديدة علّمتُ الطلبة جوانب مختلفة للحياة الروحيّة ، أحاول مساعدتهم ليروا أهميّة معايشتها. ولكن هل نجحتُ في ذلك ؟

أمّا على المستوى الشخصي ، حقيقةً لم أجرؤ أن أخطو داخل المركز ، وأسجد وأجعل نفسي مُعانَقاً من اللّه الغفور .

السبب بسيط هو أن أكون قادراً على التعبير عن رأي أو أجادل ، أدافع عن مكانتي ، أوضّح رؤية أُعطيت لي وهي لا تزال تُعطيني إحساساً بالتحكّم في الأمور.

أشعر عامّةً بالأمان عندما أتحكّم بموقفٍ ما أكثر من أخذ المخاطرة أن أدع الموقف يتحكّم فيَّ .

بالتأكيد كنتُ أصلّي ساعات عديدة ، وكنتُ أقضي أيّاماً وشهوراً في الرياضات الروحيّة ، ألقيتُ عظاتٍ لا حصر لها، مع الإرشاد الروحي. ولكني أبداً ما تخلّيت عن دور المتفرّج .

حتّى لو كانت هناك رغبة طول حياتي أن ألتفت إلى داخلي ، إلاَّ أنني ظللتُ باستمرار في موقف الغريب الذي يبحث فيَّ .

هذا البحث كان فضولياً أحياناً، وغيور أو قلق أحياناً أخرى، ولفترةٍ قصيرة كان نظرة حبّ . ولكن التخلّي عن موقفٍ آمن إلى حدٍ ما . موقف المُلاحظ الناقد يبدو وكأنه قفزة كبيرة إلى أرضٍ مجهولة كلياً .

الانتقال من تدريس الطلاّب بالجامعة إلى العيش مع أناس مُعاقين ذهنياً كان بالنسبة لي على الأقلّ خطوة نحو المشهد حيث يُعانق الأب ابنه الراكع . إنه مكان النور ، مكان الحقيقة ، مكان الحبّ . إنه المكان الذي أحببتُ أن أكون فيه ، ولكنني كثيراً ما خفت منه . فهو المكان حيث سأستقبل كلّ ما أرغب فيه ، كلّ ما سبق ورجوتُه ، كلّ ما أحتجتُه في الماضي ، ولكن هو أيضاً المكان حيث لا بدّ وأن أترك كلّ ما أريد التمسّك به . إنه المكان الذي يجابهني مع الواقع ، وهو حقيقة قبول الحبّ ، والمغفرة والشفاء ، وهذا في الغالب أصعب بكثير من إعطائه ، فهو مكان التسليم والثقة الكاملة .

بعد أن أتيتُ إلى جماعة الفجر مباشرةً ، تقابلت مع « لندا » وهي إمرأة شابّة جميلة مُصابة بإعاقة تُسمّى « متلازمة داون » وضعتْ ذراعيها حولي وقالت : « مرحباً » .

إنها تفعل ذلك مع كلّ زائر بحماس وبدون تحفّظ وبمحبّة .

لكن كيف تستقبل حضن مثل هذا ؟

لم تُقابلني « لندا » من قبل ، إنها لا تفهم كلّ ما عشته قبل وصولي لجماعة الفجر. لم تُتَح لها فرصة اللقاء مع الجانب المُظلم فيَّ ، ولا اكتشفت الجوانب المضيئة. لم تقرأ أبداً أي كتاب من كتبي ، أو سمعتْ محاضراتي ، أو حتّى أجرت محادثة لائقة معي . لذلك هل وجب عليَّ أن أبتسم فقط ؟ أدعوها لطيفة ، وأسير وكأن شيئاً لم يحدث ؟ وكأن « لندا » كانت تقف في مكانٍ ما على منصّة وتقول بإيماءة منها : « هيا ، لا تكن خجولاً ، أبوك يُريد أيضاً أن يُعانقك » .

يبدو أن في كلّ مرّة ، تُرحّب بيَّ «لندا» ، أو يُصافحني «بيل» أو يبتسم لي «چورچي» أو يصمت «آدام» ، أو تُكلّمني «ريموندا» وجب عليَّ الاختيار بين شرح هذه اللفتات أو قبولها ببساطة كدعوة لأن آتي وأكون بالقرب منهم.

تلك السنين في جماعة الفجر لن تكون سهلة. فيها الكثير من الصراع الداخلي ، والألم العقلي ، والعاطفي ، والروحي . كان هذا هو تفكيري ، ولكن لا شيء على الاطلاق من هذا القبيل حدث بعد أن وصلت .

ولكن هذه الخطوة من جامعة « هارفارد » إلى الآرش أثبتت بأن هناك خطوة واحدة صغيرة للانتقال من متفرجٍ إلى مُشارك، ومن شخص يَدين إلى خاطئٍ تائب ، ومن مدرّسٍ للحبّ إلى شخصٍ محبوبٍ ومُحبّ .

حقيقةً لم يكن لديَّ فكرة ولو ضئيلة عن صعوبة المسيرة. لم أُدرك كيف تجذّرت مقاومتي بعمق ، وكيف سيكون مؤلماً أن أسقط على ركبتيَّ ، وأترك دموعي تنهمر بحريّة.

لم أدرك صعوبة أن أكون جزءاً من الحدث العظيم الذي تصوّرهُ لوحة رامبرانت . وبدت لي كلّ خطوة صغيرة نحو المركز كطلب المستحيل .

إن هذا يتطلّب منّي أن أترك الأوقات التي أكون فيها متحكّماً، وأمتنع عن المزيد من الرغبة في حياةٍ منتجة ، وأموت مرّة عن الخوف من عدم معرفة إلى أين سيقود هذا، وأن أسلّم أكثر للمحبّة التي لا تعرف الحدود.

ومع ذلك ، عرفت بأنّي لن أكون قادراً على عيش الوصيّة العُظمى ، بأن أحبّ دون انتظار أن أكون محبوباً ، أحبّ بدون شروط ، أو بدون شروط مُسبقة .

المسيرة من تدريس الحبّ إلى السماح لنفسي بأن أكون محبوباً ، أثبتت أنها أطول مما كنتُ أعتقد .

الرؤية

كثيرٌ مما حدث منذ وصولي لجماعة الفجر مكتوبٌ في المذكّرات ودفاتر الملاحظات ، ولكن بالنظر لما هي عليه فإن القليل منها مُناسب للمُشاركة مع الآخرين .

قد تكون الكلمات جافّة ، مُزعجة ، دامية ، وعارية جداً . لكن جاء الوقت حيث يُمكن أن أنظر إلى الخلف لهذه السنوات من الاضطراب ، وأن أصفها بموضوعيّة أكثر من ذي قبل .

أنا ما زلتُ غير حرّ ، بطريقةٍ كافية ، لأن أترك نفسي مُعانَق كلّيّةً في حضن الآب الآمن . لا زلتُ أتحرّك نحو المركز بطرقٍ عديدة ، لا زلتُ مثل الابن الضال : أُسافر ، أعدّ محاضرات ، أتوقّع كيف سيكون الأمر عندما أصل نهائيّاً إلى بيت الآب .

لكن أنا حقيقةً ، في طريقي للبيت ، تركتُ القُرى البعيدة ، وأتيتُ لكي أشعر بأنّي قريبٌ من الحبّ. وهكذا الآن أنا مستعدّ أن أُشارك قصّتي التي يوجد فيها بعض الأمل ، والنور ، والتعزية .

سيكون الكثير مما عشته في السنين القليلة الماضية جزءاً من قصّتي ، وهذا ليس بسبب الغموض أو اليأس ، لكنّه لحظات في مسيرتي نحو النور.

ظلّت لوحة رامبرانت قريبة جداً منّي في ذلك الوقت . لقد تحركتُ حولها مرّاتٍ كثيرة : من مكتبي إلى الكنيسة الصغيرة ، ومنها إلى صالة المعيشة في جماعة الفجر ، ثُمَّ عودة إليها . تحدثتُ عن اللّوحة مرّاتٍ عديدة داخل وخارج الجماعة : لأناسٍ مُعاقين ومساعديهم ، للخدّام والكهنة ، للرجال والنساء من مختلف أنماط الحياة .

كلّما تحدّثتُ أكثر عن هذه اللّوحة ، رأيتها كلوحتي الشخصيّة ، اللّوحة التي تحتوي ليس فقط مضمون القصّة التي أراد اللّه أن يُخبرني بها ، لكن أيضاً مضمون القصّة التي أريد أن أقولها للّه ولشعبه .

كلّ ما في الإنجيل هو هناك . كلّ ما في حياتي هو هناك أيضاً . كلّ ما يعيشه أصدقائي هناك ، تُصبح اللّوحة باباً سريّاً حيث أستطيع أن أخطو من خلاله نحو ملكوت اللّه . إنها بمثابة بوابة ضخمة تسمح لي بأن أتحرّك إلى الجانب الآخر من الوجود، والنظر مرّة أخرى إلى تشكيلة متنوّعة من الناس والأحداث التي تُشكّل حياتي اليوميّة .

حاولتُ لسنواتٍ عديدة أن أحصل على لمحة من اللّه بالنظر بعناية إلى مختلف الخبرات الإنسانيّة : الوحدة والحبّ ، الحزن والفرح ، الغيظ والشكر ، الحرب والسلام ، تمنيتُ أن أفهم ما الصعود والهبوط للنفس البشريّة ، لكي أُميّز أن اللّه وحده ، « الذي هو الحبّ » ، يستطيع أن يروي العطش ويُشبع الجوع .

حاولتُ أن أكتشف الآخرة وراء الدُنيا ، والأبديّة وراء الزمن ، والحبّ الكامل وراء كلّ المخاوف التي تُكبِّلنا ، والتعزية الإلهيّة وراء أحزان الألم المُبرِّح والنزاع البشري .

حاولتُ باستمرار أن أنظر إلى أبعد من وجودنا البشري المائت إلى حضورٍ أوسع وأكبر وأعمق وأكثر جمالاً مما نتخيّل ، وأن نتكلّم عن حضورنا كحضورٍ يُمكن الآن أن نراه ، ونسمعه ، ونلمسه من خلال المستعدّين للإيمان .

ومع ذلك أثناء وجودي هنا في جماعة الفجر ، أنقدتُ إلى مكانٍ داخليّ لم أصله من قبل . إنّهُ مكانٌ في داخلي اختار اللّه أن يُقيم فيه . إنّه مكان أُحمَل فيه بأمان في الحضن حيث حبّ الآب الكلّي الذي يدعوني باسمي ، ويقول لي : **أنت ابني الحبيب الذي فيه راحتي .**

إنّه المكان الذي أستطيع فيه تذوّق الفرح والسلام اللذين ليسا من هذا العالم . هذا المكان كان دائماً هناك ، كنتُ دائماً على وعي به كمصدرٍ للنعمة . لكن لم أكن قادراً على الدخول والعيش فيه ، كما قال يسوع : « **مَن أحبّني سمع كلامي فأحبّه أبي ، ونجيء إليه ونُقيم عنده** » (يو١٤ : ٢٣). هذه الكلمات تجعلني دائماً أتساءل بعمق : هل أنا بمثابة بيت للّه ؟!

لكن اختبار حقيقة هذه الكلمات صعب جداً . نعم ، اللّه يُقيم في عمق كياني ، لكن كيف أستطيع قبول دعوة يسوع : إجعل بيتك فيَّ وأجعل بيتي فيك ؟

الدعوة واضحة ، إنها تحدّي روحي كبير. وتبدو كأنها مهمّة مستحيلة. أفكاري مع مشاعري ، عواطفي ، أشواقي ، كانت باستمرار بعيدة عن المكان حيث اختار اللّه أن يُقيم . أن آتي للبيت وأُقيم حيث يسكن اللّه ، هو إصغاء لصوت الحقيقة والحبّ.

هذه كانت حقّاً المسيرة التي كنتُ أخشاها كثيراً . لأني أعرف أن اللّه مُحبٌّ غيور ، يُريد كلّ جزء منّي ومن وقتي. متى سأكون مستعدّاً لقبول هذا النوع من الحبّ ؟

اللّه نفسه وضّح لي الطريق . لقد أعاقت الأزمات العاطفيّة والجسديّة حياتي المشغولة في الجماعة ، أجبرتني بالقوّة أن أرجع إلى البيت وأن أبحث عن اللّه حيث أقدر أن أجده في كياني الداخلي .

أنا لا أستطيع أن أقول إني وصلت ؛ لن أصل في هذه الحياة، لأن الطريق إلى اللّه يذهب إلى أبعد من حدود الموت . المسيرة طويلة ومتطلِّبة جداً ، إنها مملوءة بمفاجآت رائعة ، غالبا ما تُقدِّم لنا مذاقاً من الهدف الأبدي .

عندما رأيتُ لأوّل مرّة لوحة رامبرانت ، لم أكن متآلفاً مع بيت اللّه في داخلي كما أنا الآن . ومع ذلك استجابتي القويّة لحضن الأب لابنه أخبرتني بأنني كنتُ أبحث يائساً عن المكان الداخلي ، حيث أستطيع أنا أيضاً أن أكون مُعانَقاً بأمانٍ مثل الشاب الذي في اللّوحة .

في بعض الأوقات ليس لديّ تنبوء عن الخطوات التي سأخطوها لأكون أقرب إلى هذا المكان . أنا ممنون لأنه ليس لديّ معرفة مُسبّقة لما خطّطهُ لي اللّه . لكن أنا شاكر بالمِثل للمكان الجديد الذي فُتح في داخلي من خلال كلّ الآلام الداخليّة .

لديّ دعوة جديدة الآن ، إنها دعوة لأن أتكلّم وأكتب من هذا المكان عن العودة من عدّة أماكن لحياتي غير المُريحة ، وكذلك لحياة الناس . وجب عليَّ أن أركع أمام الآب ، أضع أذنيّ على صدره وأُصغي بدون انقطاع ، لنبضات قلبه .

حينئذ، وحينئذ فقط ، أستطيع أن أصف بحرصٍ ولطفٍ ما أسمعه ، أعرف الآن أنه عليَّ أن أتكلّم عمّا هو أبدي لَمن هو زمني، عن الفرح النهائي داخل حقائق عابرة لوجودنا القصير في هذا العالم ، من بيت الحبّ إلى بيوت الخوف ، من مقرّ اللّه في منازل الكيان الإنساني .

أنا أعي جيّداً ضخامة هذه الدعوة . ولا زلت أثق أنها الطريق الوحيد بالنسبة لي . يُمكن للمرء أن يُسمّيها الرؤية النبويّة ، أيّ النظر للناس وللعالم من خلال عيون اللّه .

هل هذه الإمكانيّة واقعيّة للوجود الإنساني ؟ السؤال الأكثر أهميّة : هل هي اختيار حقيقي بالنسبة لي ؟

هذا ليس سؤالاً عقلانيّاً ، بل هو سؤال عن الدعوة . أنا دُعيت للدخول في الحَرم المُقدَّس الداخلي لكياني ، حيث اختار اللّه أن يسكن . الطريق الوحيد لهذا المكان هو الصلاة ، والصلاة بلا انقطاع . صراعاتٌ عديدة وكثيرٌ من الألم يُمكن أن توضِّح لي الطريق ، ولكن أنا متأكّد أن الصلاة بلا انقطاع فقط تستطيع أن تجعلني أدخل فيه .

مقدّمة

الابن الأصغر، والابن الأكبر، والأب

أثناء العامّ بعدما رأيتُ لأوّل مرّة لوحة الابن الضال ، اتّسمت مسيرتي الروحيّة بثلاثة أوجه ساعدتني أن أجد البناء لقصّتي. الوجهة الأولى كانت خبرتي بأن أكون الابن الأصغر .

لسنواتٍ طويلة في التدريس بالجامعة والانشغال المُكثَّف في جنوب ووسط أمريكا قادني للشعور تماماً بالضياع . لقد تجوّلتُ بعيداً على نطاقٍ واسع ، تقابلتُ مع أناسٍ من كلّ أنواع وأنماط الحياة والمعتقدات ، وأصبحتُ مُشاركاً في حركاتٍ عديدة . ولكن في نهاية الأمر ، شعرتُ بأني بلا مأوى ومُتعَبٌ جداً.

عندما رأيتُ الطريقة الحانية التي لمس بها الأب كتفيّ ابنه الأصغر . وضمّه بالقرب من قلبه ، شعرتُ بعمقٍ أنني كنتُ هذا الابن الضال . وأردتُ أن أرجع مثل ما فعل ، وأن أكون معانَقاً مثلما كان .

فكّرتُ في نفسي لمدّة طويلة بأنّي مِثل الابن الضال الذي كان في طريقه إلى البيت ، سابقاً اللّحظة التي سأكون فيها مُرحّباً به من أبي . ثُمَّ بدون توقّع ، تغيّر تفكيري بشكلٍ ما .

بعد عامٍ من وجودي في فرنسا وزيارتي للأرميتاج ، شعرتُ باليأس الذي جعلني أرى نفسي بقوّة في الابن الأصغر . لقد عزمتُ على أن أذهب إلى جماعة الفجر في « تورنتو » ، وكنتيجةٍ شعرتُ أنني أكثر ثقةً في نفسي من ذي قبل .

المحطّة الثانية في مسيرتي الروحيّة بدأت ذات ليلة ، بينما كنتُ أتحدَّث عن لوحة رامبرانت مع أحد أصدقائي الإنجليز وقد كانت بيننا معرفةٌ حميمة ، وكنتُ أشرح له بحماس كيف أنني أجد نفسي في الابن الأصغر ، فنظر إليَّ مباشرةً ، وقال : « أنا مندهشٌ من هذا ، إذ أني أراك أكثر في الابن الأكبر » .

فتحت لي هذه الكلّمات مساحةً جديدةً في داخلي . صراحةً، لم أفكّر أبداً أنني كالابن الأكبر ، ولكن كلامه واجهني بهذه الإمكانيّة ، أفكارٌ لا تُحصى أتت على رأسي . بدايةً ، هو أنّي بالفعل الطفل الأكبر في أسرتي ، أستطعت أن أرى كيف عشتُ حياةً مطيعةً تماماً . وعندما كان عمري ست سنوات ، أردت أن أصبح كاهناً ، ولم أغيّر رأيي البتّة . وُلدتُ ، وتعمّدت ورُشمتُ بزيت الميرون ، وعُيّنتُ كاهناً في نفس الكنيسة ، وكنتُ دائماً مُطيعاً لوالديّ ، لمدرسيّ ، وللمطارنة ، ولإلهي.

لم أترك بيتي أبداً، لم أضيّع أبداً وقتي ، ولا نقودي في ملاحقة الشهوات ، ولا انغمستُ أبداً في الملذّات ولا السُكْر ، طول حياتي كنتُ ملتزماً تماماً ، تقليديّاً ، ومرتبطاً بالمنزل . لكن مع كلّ هذا لربما كنتُ في الواقع ضائعاً كالابن الأصغر.

فجأةً رأيتُ نفسي بطريقةٍ جديدةٍ كاملة ، رأيت غيرتي ، غضبي ، حساسيّتي ، عنادي ، عبوستي ، وفوق كلّ هذا رأيتُ برّي الذاتي الماكر . رأيتُ كم كنتُ أشكو بتفكيرٍ وشعورٍ حاقدٍ ومملوء غيظاً.

لبعض الوقت ، أصبح مستحيلاً عليَّ أن أرى نفسي كالابن الضال . كنتُ بالتأكيد كالابن الأكبر ، ولكن فقط ضِعتُ مثل الابن الأصغر ، بالرغم من إني كنت مُقيماً في البيت كلّ حياتي. لقد اشتغلتُ كثيراً جدّاً في مزرعة أبي ، ولكن لم أتذوّق أبداً فرحة أن أكون بالبيت . فبدلاً من أن أكون شاكراً لكلّ الامتيازات التي حصُلت عليها ، أصبحتُ شخصاً غاضباً جدّاً ، كنتُ أغير من إخوتي وأخواتي الأصغر منّي الذين واجهوا مخاطر عديدة ، وكان مرحّباً بهم بدفءٍ كبير عند عودتهم .

أثناء الفترة التالية التي قضيتها في جماعة الفجر كانت ملحوظة صديقي الإنجليزي تقود حياتي الداخليّة .

في الشهور التالية للاحتفال بثلاثين عاماً لسيامتي الكهنوتيّة كان ينتظرني المزيد. دخلتُ تدريجيّاً في أماكن مُظلمة داخل نفسي ، وبدأت أعاني من عذابٍ داخليّ كبير . وصلت إلى نقطة حيث لم أستطع الشعور بالأمان في جماعتي ، وكان عليَّ أن أغادر المكان لكي أبحث عن مساعدةٍ في صراعي ، واشتغل مباشرةً على شفائي الداخلي. استطعت أن آخذ معي كُتباً قليلة كلّها عن رامبرانت ومَثَل الابن الضال .

عشتُ في مكانٍ معزول بعيداً عن أصدقائي وجماعتي . وجدتُ تعزيةً كُبرى في قراءة الحياة المعذّبة للرسّام الهولندي العظيم ، وعرفت أكثر عن مسيرة العذاب التي جعلته قادراً على رسم هذا العمل الرائع. نظرت إلى الرسم الرائع لساعاتٍ متعجّباً ممَن أبدعه ورسمه رغم كلّ هزائمه وأوهامه وأحزانه .

بدأت أفهم كيف بزغت من فُرشاته شخصيّة الرجل العجوز الأعمى تقريباً ، وهو يُعانق ابنه في حركةٍ كلّها رحمة ومغفرة. وهو شخص لا بدّ وأن يكون قد ذاق آلام الموت عدّة مرّات ، وذرف الكثير من الدموع لكي يرسم صورة اللّه في تواضعٍ كبير.

وحدث أثناء هذه الفترة أن شعرتُ بألمٍ داخلي هائل ، وقال لي صديقٌ آخر الكلمة التي أنا في أشدّ الحاجة إلى سماعها ، وهي التي فتحت لي المرحلة الثالثة في مسيرتي الروحيّة .

إنها السيّدة « سو » التي كانت في جماعة الفجر ، منذ أوائل السبعينيّات ، وقد لعبت دوراً هاماً في مجيئي للمكان ، ولقد أعطتني دعماً أساسيّاً عندما كانت الأمور تتعقّد ، وشجّعتني على الكفاح للوصول إلى الحريّة الداخليّة الحقيقيّة . عندما زارتني في الأرميتاج وتحدّثت معي عن الابن الضال ، قالت : «سواء كنت الابن الأصغر أو الأكبر ، لا بدّ وأن تُدرك أنك مدعو أن تُصبح أباً» .

كان لكلماتها وقع الصاعقة عليَّ ، بعد كلّ السنين التي عشتها مع اللّوحة والنظر إلى الرجل العجوز الذي يُعانق ابنه ، لم يخطر ببالي أبداً أن الأب هو الذي يُعبِّر عن كلّ دعوتي في الحياة .

لم تعطني « سو » أيّة فرصة للاعتراض . وأضافت : « كنت تبحث عن أصدقاء طيلة حياتك ؛ وكان لديك توقٌ شديد للعواطف كما عرفتك ، وكنت مهتمّاً بآلاف الأشياء ؛ وتجذب الاهتمام والتقدير ، والمديح والتأييد شمالاً ويميناً . حان الوقت أن تُعلن دعوتك الحقيقيّة ، بأن تكون أباً يُرحّب بأبنائه عند عودتهم للبيت ، بدون أي أسئلة ، وبدون انتظار شيء منهم في المقابل . انظر للأب في لوحتك وأنت ستعرف ما أنت مدعو أن تكونه . نحن في الجماعة ، ومعظم الناس من حولنا ، لا يحتاجون إليك كصديقٍ جيّد ، أو حتّى أخٍ عطوف . فنحن نحتاجك أباً يُعلن سُلطة الرحمة الحقيقيّة » .

عندما نظرتُ في اللّوحة للرجل العجوز المُلتحي مع ردائه الأحمر ، شعرت بمقاومة عميقة بأن أفكِّر في نفسي بهذه الطريقة ، شعرت باستعدادٍ تامّ أن أرى نفسي في الابن الأصغر المُبذِّر ، أو في الابن الأكبر الحاقد ، ولكن فكرة أن أكون مثل الرجل العجوز الذي ليس لديه شيء يفقده لأنه فقد كلّ شيء ، وهو فقط يُعطي ، هذه الفكرة أغرقتني في الخوف .

رغم أن رامبرانت مات عندما كان عمره ٦٣ عاماً ، وأنا أقاربه في العُمر أكثر مما أقُارب عمر الابنين الآخرين ، فهو مستعدّ أن يضع نفسه في مكان الأب ؛ لِما لا أضع نفسي أنا أيضاً ؟

مرّ عام ونصف على كلام « سو » لي ، كان وقت لبدء إعلان أبوّتي الروحيّة ، لقد كان صراعاً بطيئاً وشاقاً ، وأحياناً أشعر بالرغبة في أن أظلّ الابن ولا أكبرُ أبداً في العمر.

ولكني تذوّقتُ الفرح الهائل بعودة الأبناء إلى البيت ، ووضع الأيدي عليهم في حركة المغفرة والبركة . توصّلت بطرق بسيطة لمعرفة ماذا يعني أن تكون أباً ، لا يسأل أسئلة ، بل يُريد أن يُرحّب بأبنائه فقط .

كلّ هذا قد عشته منذ مقابلتي الأولى للوحة رامبرانت ، لم تلهمني فقط أن أكتب هذا الكتاب ، بل أيضا اقترحَت بنيته . سأركّز الضوء أوّلاً على الابن الأصغر ، ثُمَّ على الابن الأكبر، وأخيراً على الأب .

وبالفعل أرى نفسي في الابن الأصغر ؛ وكذلك في الابن الأكبر؛ وأنا في طريقي لأن أصبح الأب .

بالنسبة لك أنت يا مَن سيعيش هذه المسيرة الروحيّة معي ، أرجو وأصلّي أن تكتشف في داخلك ليس فقط ابنين ضائعين للّه، بل أيضاً الأمّ والأب الرحيم الذي هو اللّه .

الجزء الأوّل

الابن الأصغر

« كانَ لِرَجلٍ اَبنانِ ، فقالَ لَهُ الأصغَرُ : يا أبـي أعطِني حِصَّتي مِنَ الأملاكِ. فقَسَم لهُما أملاكَهُ. وبَعدَ أيّامٍ قَليلةٍ ، جمَعَ الابنُ الأصغَرُ كُلَ ما يَملِكُ ، وسافَرَ إلى بِلادٍ بَعيدَةٍ ، وهُناكَ بَدَّدَ مالَهُ في العَيشِ بِلا حِسابٍ. فلمَّا أنفَقَ كُلَ شيءٍ ، أصابَت تلكَ البلادَ مَجاعةٍ قاسيَةٍ ، فوقَعَ في ضيقٍ. فلَجأ إلى العَمَلِ عِندَ رَجُلٍ مِنْ أهلِ تِلكَ البِلادِ ، فأرسَلَهُ إلى حُقولِهِ ليَرعى الخنازيرَ. وكانَ يَشتَهي أنْ يَشبَعَ مِنَ الخُرنُوبِ الذي كانَت الخنازيرُ تأكُلُهُ ، فلا يُعطيهِ أحدٌ. فرَجَعَ إلى نَفسِهِ وقالَ : كم أَجيرٍ عِندَ أبـي يَفضُلُ عَنهُ الطَّعامُ ، وأنا هُنا أموتُ مِنَ الجوعِ. سأقومُ وأرجِعُ إلى أبـي وأقولُ لَه : يا أبـي ، أخطَأتُ إلى السماءِ وإلَيكَ ، ولا أستحِقُّ بَعدُ أنْ أُدعى لكَ اَبنًا، فعامِلْني كأَجيرٍ عِندَكَ.

فقامَ ورجَعَ إلى أبيهِ » .

(لو ١٥ : ١١-٢٠ أ) .

رامبرانت والابن الأصغر

عندما رسم رامبرانت لوحته « الابن الضال » كان في أواخر أيّامه ، وعلى الأرجح أن هذه اللّوحة هي واحدة من آخر أعماله. كلّما قرأت عنها ونظرت إليها، كلّما رأيتها كآخر روايةٍ لحياةٍ مضطربة ومُعذَّبة .

كلٌّ من لوحتهِ التي لم يُكملها لسمعان الشيخ والطفل يسوع ، ولوحة الابن الضال توضّحان نفاذ بصيرة الرسّام في عمره المتقدِّم ، نفاذ بصيرة يوضّح أن العمى الجسدي والرؤية العميقة الداخليّة متّصلَين حميميّاً .

الطريقة التي يحتضن بها سمعان الشيخ الطفل الرضيع ، والطريقة التي يُعانق بها الأب العجوز ابنه المُتعَب ، تكشف عن رؤية باطنيّة تُذكِّر بكلمات يسوع لتلاميذه : « **طوبى للعيون التي ترى ما أنتم ترونه** » .

يحمل كلٌّ من سمعان الشيخ والأب في داخلهما نورٌ سرّيّ . إنه نورٌ باطنيّ ، يأتي من الأعماق ، ويُشعُّ بكلّ جمالٍ وحنان . ومع هذا ظلّ هذا النور الباطني مختبأً لوقتٍ طويل . لسنوات عديدة ظلّ رامبرانت غير قادر على الوصول لهذا النور إلاَّ تدريجيّاً ، وعبر الكثير من المعاناة توصّل لمعرفته داخل نفسه ، ومن خلال نفسه ، وفي كلّ ما رسمه.

قبل أن يكون رامبرانت مثل الأب ، كان لوقتٍ طويل مثل الابن المتكبِّر الذي « **جمَعَ الابنُ الأصغَرُ كُلَ ما يَملِكُ ، وسافَرَ إلى بِلادٍ بَعيدَةٍ ، وهُناكَ بَدَّدَ مالَهُ في العَيشِ بِلا حِسابٍ** ».

عندما أنظر بعمقٍ إلى اللّوحة التي رسمها رامبرانت أثناء سنين عمره الأخيرة ، والتي تشرح الكثير عن قدرته في أن يرسم الأب العجوز المضيء وسمعان الشيخ ، لا يجب أن أنسى أنه عندما كان شاباً ، كان لديه كلّ السمات التي للابن الضال : متهوّر ، واثقٌ من نفسه ، مُسرِف ، شهواني ، ماكر ، ومتكبِّر جداً.

في عمر الثلاثين ، رسم نفسه مع زوجته ، كالابن الضال في بيتٍ للدعارة : لوحة لا عُمق مرئي لها ، شخصٌ يسكر بفمٍ نصف مفتوح ، وعيون شرهة جنسيّاً ، وينظر بإزدراء على نحوٍ فاضح وكأنه يُريد أن يقول للذين يُشاهدون لوحته :

« أليس في هذا كثيرٌ من التسلية ! » . ويرفع بيده اليُمنى كأسه نصف الفارغة ، بينما تُلامس يده اليُسرى أسفل ظهر فتاته ، التي لديها عيون لا تقلّ شهوة عن عيونه ، شعره المُجعّد، قبّعته القُرمزيّة مع معطفه الأبيض الضخم ، والخنجر الذهبي يُلامس ظهر الإثنين ، كلّ هذا يترك القليل من الشكّ في قصدهما .

عند التحديق بإمعان في هذه اللّوحة أجد صعوبةً بالغة في تصديق أن مَن رسم هذه اللّوحة هو نفسه الذي رسم لوحة الابن الضال بعد ثلاثين سنة . حيث رسم نفسه بعيونٍ تنفذ بعمق في أسرار خفيّة في الحياة .

كلّ مَن يكتب سيرة رامبرنت يصفه كشابٍ متعجرفٍ ، وعبقري ، يتوق لاكتشاف كلّ شيء حوله ، منبسط يُحبّ الترف وغير حسّاس تجاه مَن حوله. لا يوجد شكّ في أن أحد اهتماماته الرئيسيّة هي المال ، الذي اكتنز وأنفق وخسر الكثير منه ، كان يُضيّع جزءاً كبيراً من طاقته في القضايا المرفوعة ضدّه في محاكم التسويات الماليّة ودعاوى الإفلاس .

اللّوحات التي رسمها لنفسه خلال أواخر العشرينات من عمره وأوائل الثلاثينات تكشف أنه رجلٌ جائع للشُهرة والتملّق ، مولعاً بالأزياء باهظة الثمن ، مفضّلاً السلاسل الذهبيّة ، والياقات البيضاء التقليديّة ، والقبّعات الرياضيّة الغريبة ، والخوذات ، والعمائم ... إلخ .

على الرغم من أن الكثير من هذه التفاصيل يُمكن أن يكون طريقة طبيعيّة في تقنيات رسم اللّوحة ، لكنها تدلّ على سمة الكبرياء التي لم تكن ببساطة تُرضي رعاته .

ومع أنه عاش فترةً من النجاح والشهرة والثروة ، إلاَّ أنها كانت قصيرةً وتعرّض لكثيرٍ من الحزن والكوارث بسبب سوء الحظ .

يا لهم من تعساء هؤلاء الناس الذين يُشبهون الابن الضال . فبعد أن فقد رامبرنت ابنه في عامّ ١٦٣٥ ، وفقد ابنته الكبرى عامّ ١٦٣٨، وابنته الثانية في عامّ ١٦٤٠ ، وزوجته التي أحبّها وأعجب بها بشدّة ماتت في عامّ ١٦٤٢ تاركةً رامبرانت وحيداً مع طفله البالغ من العمر ٩ أشهر . فقد استمرّت حياته مليئة بالألم والمشاكل التي لا حصر لها.

كان لديه علاقة غير موفَّقة مع ممرضة انتهت بدعوة قضائيّة والحبس في ملجأ ، وتبع ذلك ارتباط أكثراستقراراً مع زوجته الثانية التي انجبت له ابن توفى عامّ ١٦٥٢ ، وابنة أخرى وهي الوحيدة التي عاشت من بين أبنائه .

خلال تلك السنين ، انخفضت شعبيّة رامبرانت كرسّام ، على الرغم من أن بعض النقّاد والجمهور استمرّوا في تقديره كواحدٍ من أعظم الرسّامين في ذلك الوقت .

وأصبحت مشاكله الماليّة خطيرة لدرجة أنه في عامّ ١٦٥٦ أعلن إفلاسه وطُلب منه التنازل عن جميع ممتلكاته الشخصيّة لصالح أصحاب الديون كي يتجنّب الإفلاس . بيعت كلّ ممتلكاته الخاصّة وأعمال رسّامين آخرين ، ومجموعة كبيرة من الأعمال الفنيّة ، ومنزله بامستردام ، وأثاث منزله ، في ثلاثة مزادات خلال عاميّ ١٦٥٧- ١٦٥٨ .

على الرغم من أنه لم يتخلّص تماماً من الديون والمدينين ، إلاَّ أنه استطاع الحصول على قدرٍ من السلام زاد من الدفء والبُعد الداخلي للوحاته . وهذا يوضّح أن الكثير من خيبات الأمل لم تكدّره ، بل على العكس كان لها تأثير في تنقية رؤيته .

كتب أحد المتخصّصين قائلاً : « بدأ رامبرنت ينظر بعين الاعتبار للإنسان والطبيعة وبعينٍ نافذة أكثر ، لم يعد يتشتّت بالروائع الخارجيّة والعرض المسرحي » .

في عامّ ١٦٦٣ توفّيت زوجته الثانية . وبعد خمس سنوات مات ابنه الحبيب من زوجته الأولى . وعندما مات رامبرانت نفسه في عامّ ١٦٦٩ كان رجلاً فقيراً ووحيداً. ولم يبقَ من عائلته سوى ابنته من زوجته الثانية وحفيدته وابنة زوجته .

عندما أنظر إلى لوحة « الابن الضال » الذي يركع أمام أبيه ويسند رأسه على صدره ، لا يسعني إلاَّ أن أرى مرةً واحدة ثقة الفنان بذاته ، والوعي العميق بأن كلّ المجد الذي جمعه لنفسه قد تحوّل إلى مجدٍ باطل .

بدلاً من الملابس باهظة الثمن التي رسمها رامبرانت الشاب لنفسه كما كان يرتدي في بيوت الدعارة ، هو الآن يرتدي ملابس ممزّقة ليُغطّي جسده الهزيل ، والصندل الذي مشى به بعيداً، أصبح بالياً عديم الفائدة ، وعندما أنقل بصري من الابن التائب إلى الأب الحنون ، وأرى النور المُشعّ المنعكس من السلاسل الذهبيّة ، والخوذة والشموع وعدّة الحرب للفرس ، والمصابيح الخفيّة انطفأت وحلّ محلّها نورٌ داخلي لعمره المتقدِّم، أرى الحركة من المجد الباطل الذي يغوي الشخص بالبحث عن الثروة والشُهرة ، إلى المجد المخفي في النفس الإنسانيّة التي تتجاوز الموت .

مغادرة الابن الأصغر

فقال الابن الأصغر لأبيه : « يا أبي أعطِني حِصَّتي مِنَ الأملاكِ. فقَسَم لهُما أملاكَهُ. وبَعدَ أيّامٍ قَليلةٍ ، جمَعَ الابنُ الأصغَرُ كُلَ ما يَملِكُ ، وسافَرَ إلى بِلادٍ بَعيدَةٍ » .

(لو ١٥ : ١١-١٣ب) .

الرفض الجذري

العنوان الكامل للوحة « رامبرانت » هو ، كما قيل من قبل ، عودة الابن الضال . ضمنيّاً « العودة » تعني التَرْك ، «العودة » تعني الرجوع للبيت بعد تركه ، « الاقتراب » بعد الذهاب بعيداً .

الأب الذي يُرحِّب بابنه في البيت يكون سعيداً جدّاً ، لأن ابنه هذا « **كان ميّتاً فعاش وضالاً فوجد** » .

الفرح الغامر والترحيب بعودة ابنه الضائع يخفي حُزناً كبيراً على ما حدث من قبل . هذا الاكتشاف لما فُقد له خلفيّة ؛ الفرح بالعودة تحت عباءته حزن التَرْك ، لا بدّ لي أن أتجرّأ بأن أتذوّق الأحداث المحُزنة التي سبقتها .

قال الابن الأصغر لأبيه ، قبل وقتٍ طويل من الذهاب والعودة، « **يا أبي أعطني حصّتي من الأملاك** » . حينئذ حصل على كلّ شيء ثمَّ تَرَك . لوقا البشير، يروي القصّة بكلّ بساطة، لكن ما حدث جارح ومؤذي ومناقض تماماً للتقاليد المتّبعة في ذلك العصر .

يقول بعض مفسّري الكتاب المقدّس : « إن أسلوب الابن الأصغر في التَرْك مُعادل لرغبته في موت أبيه » . لأكثر من خمسة عشر عاماً ، كنت أسأل أشخاصاً من بلادٍ مختلفة من المغرب إلى الهند ومن تركيا إلى السودان عن طلب الابن لميراثه ولا يزال الأب حيّاً . الإجابة دائماً نفس الشيء .

المحادثة جرت كالآتي :

- هل حدث أن طلب أي ابن في بلدك نفس الطلب من أبيه؟

- أبداً .

- هل يقدر أي ابن أن يطلب هذا الطلب ؟

- مستحيل .

- ماذا سيحدث إذا تمّ هذا ؟

- طبعاً ، سيُعاقبه أبوه .

- لماذا ؟

- لأن الطلب يعني أنه يُريد موت أبيه .

إن طلب الابن ليس فقط لنصيبه من الميراث ، لكن أيضاً الحقّ في تجزئته .

بعد نقْل ممتلكات الأب لابنه ، لا زال لدى الأب الحقّ في التراجع ، طالما هو حيّ ، هذا الحقّ قائم طيلة حياته ، هنا يحصل الابن الأصغر على طلبه ، تحوّلت الملكيّة التي ليس لديه الحقّ فيها حتّى وفاة أبيه ، وهذا الطلب يتضمّن قوله للأب : «أنا لا أستطيع أن أنتظر موتك» ، بين السطور تكمن كلّ الطلبات .

إن تَرْك الابن للبيت هو فعلٌ جارح أكثر بكثير مما يبدو من الوهلة الأولى ، لأن الابن وُلد وتربّى في وسط قيم وتقاليد مرعيّة من قِبل الجماعة الكبيرة التي هو جزء منها ، وبتركه كَسَر هذه القيم .

عندما يكتب لوقا : « **وسافر إلى بلادٍ بعيدة** ». إنه يُشير إلى أكثر من مجرّد رغبة الشاب في رؤية المزيد من العالم . إنه يتكلّم عن قَطعٍ جارح ، بدون أي مراعاة ، مع طريقة العيش والتفكير والعمل المُسلَّم بها من جيلٍ إلى جيل باعتبارها إرثاً مقدّساً. إنه أكثر من عدم احترام ، إنه خيانة للقيم التي تُعتبر كنزاً قيّماً للعائلة والجماعة.

هذا التفسير هامٌ بالنسبة لي ، ليس فقط لأنه يُتيح لي فهماً دقيقاً للمَثَل في سياقه التاريخي ، ولكن أيضاً، والأهمّ من هذا كلّه أنه يدعوني للتعرّف على الابن الأصغر في نفسي .

في البداية يبدو من الصعب اكتشاف التمرّد الجريء في مسيرة حياتي . رفض القيم في تراثي ليس جزءاً من الطريقة التي أفكّر بها في نفسي ، ولكن عندما أنظر باهتمام إلى العديد من الطُرق الأكثر أو الأقلّ دهاءً التي بواسطتها فضّلت البلد البعيدة عن البيت القريب ، يظهر الابن الأصغر سريعاً.

أتحدّث هنا روحيّاً عن « **تَرْك البيت** » ، الذي يختلف تماماً عن الواقع الفعلي الذي هو أكثر من مجرّد قضاء معظم سنوات عمري خارج هولندا بلدي المحبوب.

يُعبِّر مَثَل الابن الضال أكثر من أي مَثَلٍ آخر في الإنجيل عن عظمة محبّة اللّه الرحيم ، وعندما أضع نفسي في هذه القصّة تحت نور الحبّ الإلهي ، يُصبح واضحاً بشكلٍ مؤلم أن تَرْك البيت هو أقرب إلى خبرتي الروحيّة أكثر مما كنت أعتقد .

رَسْم « رامبرانت » للأب وهو يُرحّب بابنه نادراً ما يُظهِر أي حركة خارجيّة . وعلى النقيض مع رسمه الأوّلي للابن الضال الذي رسمه في وقتٍ سابق عامّ ١٦٣٦ مملوء بالحركة ، الأب يجري نحو الابن والابن يرمي بنفسه على قدمي الأب ، وبعد حوالي ٣٠ عاماً يرسم المنظر مُعبِّراً عن السكينة التامّة .

لمسة الأب لابنه هي بركةٌ أبديّة ؛ ارتياح الابن على صدر أبيه هو بمثابة سلام أبديّ . ويكتب « كريستيان تيمبل » عن هذا : «إن لحظة الاستقبال والمغفرة في السكينة لهي دوام الرحمة بلا نهاية. حركة الأب والابن تتحدّث عن شيءٍ لا ينتهي ، بل يستمرّ إلى الأبد» .

ويُلخِّص أحد الكتّاب هذه الرؤية بروعةٍ عندما يكتب : «مجموعة الأب والابن تكون ظاهريّاً بلا حركة تقريباً ، ولكن في الباطن هي أكثر حركة... القصّة لا تتعامل مع الحبّ البشري لأبٍ أرضي ... ما أعنيه وأقدِّمه هنا هو الحبّ الإلهي والرحمة في قوّتهما التي في وسعها أن تحوّل الموت إلى حياة ».

صوت الحبّ الأصمّ

مغادرة البيت هو أكبر من مجرّد حدث تاريخي ، إنه يتجاوز حدود الزمان والمكان ، إنه إنكار للحقيقة الروحيّة التي مفادها أنني انتمي إلى اللّه بكلّ كياني .

إن اللّه يحملني آمناً في عناقٍ أبديّ ، إني حقّاً منقوش على كفيّ اللّه ومختبئ في ظلّهما .

تَرْك البيت يعني تجاهل الحقيقة وهي أن اللّه : « **... صنعني في الرَحِم وأبدعتني هناك في الخفاء** » (مز ١٣٩ : ١٥). تَرْك البيت يعني أن أعيش كما لو كنتُ بلا مأوى ، وعلىَّ البحث بعيداً للعثور عليه .

البيت هو مركز كياني حيث أستطيع سماع الصوت القائل لي: « **أنت محبوبي ، فيك راحتي** » ، نفس الصوت هو الذي أعطى الحياة لآدم الأوّل وتحدّث ليسوع آدم الثاني ، نفس الصوت يُكلِّم كلّ أبناء اللّه ، وهو يحرّرهم لكي ، وهم في وسط عالم مُظلِم ، يظلّوا في النور .

لقد سمعتُ هذا الصوت يُخاطبني في الماضي ولا زال يُكلِّمني الآن. إنّه صوتٌ لا ينقطع أبداً ، إنّه صوت الحبّ يتحدّث من الأبديّة ويُعطي الحياة والحبّ حيثما يُسمَع. عندما أسمع الصوت ، أعرف أنّني في البيت مع اللّه ولا شيء أخشاه. كمحبوبٍ للآب السماوي . أستطيع أن أسير في ظلال الموت لا أخاف شرّاً ، كمحبوبٍ أستطيع شفاء المرضى ، إقامة الموتى ، تطهير البُرص ، إخراج الشياطين ، لأنّي آخذ بلا مُقابل ، أستطيع أن أعطي بلا مُقابل ، كمحبوبٍ ، أستطيع المواجهة ، التعزية ، التوبيخ ، التحذير ، التشجيع بلا خوف من الرفض أو احتياج للتقدير أو التأييد.

كابنٍ محبوب أتألّم من الاضطهاد دون الرغبة في الانتقام ، أستقبل المديح دون استخدامه كدليلٍ على برّي الذاتي . كمحبوبٍ، يُمكن أن أُعذَّب وحتّى أُقتَل دون أن يكون لديَّ شكّ في أن الحبّ الذي أُعطيَّ لي هو أقوى من الموت .

كمحبوبٍ ، أكون حرّاً كي أعيش وأعطي الحياة . حرّاً أيضاً أن أموت أثناء عطائي الحياة .

جعل يسوع هذا واضحاً لي ، إن نفس الصوت الذي سمعه على جبل تابور أستطيع أن أسمعه أيضاً . كما أن لديه شركة مع الآب كذلك أنا أيضاً.

صلاته لأبيه من أجل تلاميذه ، يقول فيها : « **هم لا ينتمون إلى العالم ، كما أنا لا أنتمي إلى العالم ... قدِّسهم في الحقّ لأن كلامك حقّ . أنا أرسلتهم إلى العالم كما أرسلتني إلى العالم. من أجلهم أُقدِّس نفسي حتّى يتقدّسوا هم أيضاً في الحقّ** » (يو ١٧ : ١٤-١٩) .

هذه الكلمات تكشف عن مكان إقامتي الحقيقي ، بيتي الحقيقي مسكني الحقيقي الدائم .

الإيمان هو الثقة الجذريّة أن البيت كان دائماً هناك ، وسيظلّ هناك . يدا الآب القويّتان مستقرّتان على كتفيّ الابن مع البركة الإلهيّة الأبديّة : أنت محبوبي الذي فيك رضاي . بعد أن تَركتُ البيت مراراً وتكراراً . لقد فررتُ من يديّ البركة وهربتُ بعيداً في أماكن أبحث فيها عن الحبّ ، وهذه هي مأساة حياتي الكبرى وحياة كثيرين أتقابل معهم في مسيرتي .

بطريقةٍ أو بأخرى أصبحتُ أصمّ بالنسبة للصوت الذي يدعوني « المحبوب » ، تركتُ المكان الوحيد الذي يُمكنني فيه سماع هذا الصوت ، وذهبتُ يائساً أبحث في مكانٍ آخر عمّا لم أجده في البيت .

أوّلاً هذه الأصوات ببساطة لا تُصدَّق ، لماذا أترك المكان حيث أجد كلّ ما أحتاج أن أسمع ما يمكن سماعه ؟ كلّما فكّرتُ أكثر في تلك الأسئلة ، كلّما أدركتُ أن الصوت الحقيقي للحبّ هو صوتٌ ناعمٌ جدّاً ورقيق ، يتحدّث إليَّ في عمق كياني. إنّه ليس بصوتٍ صاخب ، يفرض ذاته عليَّ ويتطلّب انتباه . إنّه صوت الأب الذي ينتظر ويبكي كثيراً .

إنّه الصوت الذي يُمكن أن يسمعه الذين يسمحون لأنفسهم بأن يُلمَسوا. الإحساس بلمسة يديّ الآب وسماع الصوت يدعوني « المحبوب » واضحٌ كما أنّه أصبح واضحاً للنبي إيليا. الذي كان واقفاً على الجبل كي يتقابل مع اللّه .

هناك أتى أوّلاً صوت العاصفة ، ولكن اللّه لم يكن في العاصفة . حينئذ أتى الزلزال ، ولكن اللّه لم يكن هناك أيضاً. أخيراً أتى شيءٌ ما رقيقٌ جدّاً ، يُسمّيه البعض «النسمة الرقيقة»، ويُسمّيه آخرون « الصوت الهادئ ». عندما شعر إيليا بهذه النسمة ، غطّى وجهه لأنه عرف أن اللّه كان حاضراً . في حنان اللّه ، الصوت كان لمسةً واللّمسة كانت صوتاً. ولكن يوجد العديد من الأصوات الأخرى ، مُزعجة مملوءة بالوعود ومضلّلة، هذه الأصوات تقول: « إذهب خارجاً وبرهِن على أنك تستحقّ شيئاً ما » .

بعد أن سمع يسوع الصوت الذي يدعوه الحبيب ، انقاد إلى الصحراء ، وسمع تلك الأصوات التي كانت تُغريه بأنه مستحقّ الحبّ لكونه ناجح ومشهور وقوي.

هذه الأصوات نفسها مألوفة لديّ. هي دائماً هناك ، ودائماً ستكون ، تصل إلى عمق كياني حيث أسأل عن صلاحي والشكّ في استحقاقي . هي تهمس لي بأنني لن أكون محبوباً دون استحقاق للحبّ خلال مجهودٍ مُحدّد وعملٍ شاق ، هذه الأصوات تُريد أن أبرهن لنفسي وللآخرين بأنّي مستحقّ أن أكون محبوباً ، وهي تدفعني باستمرار إلى فعل كلّ شيء ممكن كي أحصل على القبول . وهي تُنكر بشدّة أن الحبّ هو هديّة مجانيّة تماماً.

إنّي أترك البيت في كلّ مرّة أفقد فيها إيماني بالصوت الذي يدعوني الحبيب ، وأتّبع الأصوات التي تُقدِّم طُرقاً عديدة لأربح الحبّ الذي أرغب فيه كثيراً.

ومنذ أن كان لديَّ أذنان للسمع وهذه الأصوات تهمس فيهما ولا زالت معي منذ ذلك الحين .

أسمع هذه الأصوات من خلال والديَّ ، وأصدقائي ، ومُدرسيَّ، وزملائي ، ولكن قبل هؤلاء أسمعها بواسطة وسائل الإعلام المحيطة بي ، التي تقول لي : « إظهر لنا أنك شخصٌ جيّد . لديك ما هو أفضل ، وكُن أحسن من زملائك . كم تكون درجاتك ؟ كن متأكّداً أنك ستحقّق تفوّقك من خلال المدرسة ! إنك ستحقّقها بمجهودك ! ما هي علاقاتك مع الناس ؟ هل أنت متأكّد أنك تُريد أن تكون صديقاً لهؤلاء الناس ؟ هذه الميداليات توضّح أنك كنت لاعباً ماهراً ! لا تُظهِر ضعفك ، ستُستغلّ ! هل رتّبت أمورك عندما ستصبح متقدِّماً في العمر ، عندما لا تكون مُنتجاً، سيفقد الناس الاهتمام بك ، وعندها يُنظَر إليك على أنك ميّت ! » .

بقدر ما أظلّ مُصغياً للصوت الذي يدعونني محبوباً ، تكون هذه الإرشادات والأسئلة غير مؤذية .

إنّ الوالدين ، والأصدقاء ، والمدرّسين ، حتّى هؤلاء الذين يتحدّثون في وسائل الإعلام ، هم في الغالب مُخلصون جدّاً في اهتمامهم . نصائحهم وتحذيراتهم في مكانها .

في الواقع هم تعبيرات بشريّة محدودة للحبّ الإلهي غير المحدود ، لكن عندما أنسى الصوت الذي هو أوّلاً حبٌّ غير مشروط ، حينئذٍ تستطيع هذه الأصوات غير البريئة أن تُسيطر على حياتي وتأخذني إلى بلادٍ بعيدة .

من السهل أن أعرف متى حدث هذا : الغضب ، الغيظ ، الغيرة ، الرغبة في الانتقام ، الطمع ، الشهوة الجنسيّة ، العداوة، الخصومة ، المنافسة ، هي علاماتٌ واضحة على أنّني تركتُ البيت ، وهذا ما حدث معي .

عندما أنتبه لما يجري في ذهني لحظةً بلحظة ، أصل لاكتشافٍ غير مُريح : إنه يوجد لحظات قليلة جدّاً أثناء يومي أكون فيها متحرّراً من هذه المشاعر والعواطف المُظلمة .

أسقط باستمرار في فخٍ قديم ، حتّى قبل أن أكون واعياً تماماً له . أجد نفسي متعجّباً من موقف شخصٍ ما يجرحني ، أو يرفضني ، أو لا يعطيني انتباهاً . بدون أن أدرك ذلك .

أجد في نفسي ميلاً للتفكير في نجاح شخصٍ ما ، في شعوري بوحدتي ، والطريقة التي يستغلّني بها العالم . على الرغم من اهتماماتي الواعية ، غالباً ما أجد نفسي وأنا في أحلام اليقظة غنيّاً ، قويّاً ، ومشهوراً .

كلّ هذه الألعاب العقليّة تُظهِر لي هشاشة إيماني بأنني محبوب الآب الذي يجد رضاه فيَّ .

أخاف أن أكون غير محبوب ، مُنتقَداً من الآخرين ، أو مستبعداً ، أو أموت ، أو أُقتل ، إنني باستمرار أهتمّ بالدفاع عن نفسي ، وبذلك أؤكّد لنفسي الحبّ الذي أُفكِّر فيه وأحتاجه وأستحقّه . وبهذا أسافر بعيداً عن بيت أبي وأختار الإقامة «**في بلدٍ بعيد**».

الجري وراء السراب

هنا يَبرز سؤال : إلى مَن أنتمي ؟ إلى اللّه أم العالم ؟ العديد من انشغالاتي اليوميّة تُشير إلى الانتماء للعالم أكثر منه للّه. القليل من النقد يجعلني غاضباً ، والقليل من الرفض يجعلني مكتئباً . القليل من المديح يرفع معنويّاتي ، والقليل من النجاح يسرّني. القليل جدّاً يُمكن أن يرفعني إلى أعلى أو يحطّني إلى أسفل . في معظم الأحيان أكون بمثابة قاربٍ صغير في المحيط، واقعاً تحت رحمة الأمواج .

أقضي كلّ وقتي وطاقتي في الاحتفاظ بتوازني والمحافظة على نفسي من الانقلاب والغرق ، أُظهر أن حياتي هي صراعٌ من أجل البقاء ، وهو ليس بصراعٍ مقدّس ، بل صراعٌ قَلِق ناجم عن أفكاري الخاطئة بأن العالم سيُدافع عنّي .

على قدر ما أستمرّ في الجري متسائلاً عن : « هل تُحبّني ؟ هل حقّاً تُحبّني ؟ » ، أعطي كلّ قوّتي لأصوات العالم وأضع نفسي في عبوديّة لأن العالم مملوء بالعديد من « إذا كنتَ » .

يقول العالم : نعم ، أحبّك إذا كنتَ حسن المنظر ، وذكيّاً ، وغنيّاً. أحبّك إذا كنتَ حاصلاً على تعليمٍ عالي ، ووظيفةٍ جيّدة، وعلاقاتٍ جيّدة . أحبك إذا كنتَ مُنتِجاً ، تبيع كثيراً وتشتري كثيراً ، يوجد عددٌ لا متناهي من « إذا كنتَ » مختبئ في حبّ العالم .

« إذا كنتَ » هي شروطٌ تستعبدني ، خاصةً أنه من المستحيل أن أُجيب بالقدر الكافي على كلّ الشروط .

حبّ العالم كان وسيكون دائماً حبّاً مشروطاً ، وسأبقى «فريسةً » للعالم ، أحاول ، ثم أفشل ، وأحاول مرّة ثانية . إن العالم ينمّي فىَّ الإدمان لأن ما يُقدِّمه لا يُشبع الشوق الأعمق لقلبي .

ربّما تكون كلمة الإدمان أفضل كلمة تشرح الضياع الذي يتغلغل بعمقٍ شديد في المجتمع الزمني . إدمانُنا يجعلنا نتعلّق بما يُذيعه العالم كمفاتيح لتحقيق الذات : تكديس الثروة ، والسُلطة ؛ إحراز منزلةٍ رفيعةٍ وإعجاب الناس ؛ الإسراف في استهلاك الطعام والشراب ، والإشباع الجنسي بدون تمييز بين الشهوة والحبّ . كلّ هذه الأنواع من الإدمان تخلق توقّعات لن تقدر أبداً على إشباع احتياجاتنا الأكثر عُمقاً. على قدر ما نعيش داخل أوهام العالم ، سيحكم إدماننا على بحثنا بأنه لا فائدة منه ، إنّه في « **بلدٍ بعيد** » .

إن هذا الوضع يجعلنا في مواجهة أوهام لا نهاية لها. في حين أن احتياجات القلب العميقة تظلّ غير محقّقة .

في هذه الأيام تزداد أنواع الإدمان ، ونضلّ الطريق . يُمكن أن نُسمّي بوضوح حياة الإدمان الحياة المُعاشة في بلدٍ بعيد . وهناك نصرخ لأجل أن يظهر خلاصنا.

أكون كالابن الضال في كلّ وقت أبحث فيه عن الحبّ غير المشروط حيث لا يُمكن أن أجده .

لماذا أستمرّ في تجاهل مكان الحبّ الحقيقي ، وأُصرُّ على البحث عنه في مكانٍ آخر ؟ لماذا أستمرّ في تَرْك البيت حيث أُدعى ابناً للّه ، والمحبوب لأبيه ؟

أندهش باستمرار كيف أتلقّى عطايا اللّه مثل صحّتي ، ذكائي، عاطفتي ، وأستخدمهم في إجبار الناس على مدحي وتأييدي ، والتنافس لأجل المكافأة ، بدلاً من تنميتهم لمجد اللّه .

نعم ، أنا غالباً ما أحملهم إلى « **بلدٍ بعيد** » وأضعهم في خدمة عالم الاستهلاك الذي لا يعرف قيمتهم الحقيقيّة . غالباً ما أريد أن أبرهن لنفسي وللعالم بأنّي غير محتاج لحبّ اللّه ، وأنّي أستطيع أن أصنع الحياة بطريقتي الخاصّة ، وأريد أن تكون مستقلّةً تماماً . ووراء كلّ هذا يقف التمرّد الكبير ، الرفض الجذري لحبّ الآب ، اللّعنة غير المنطوق بها : « أتمنّى لك أن تموت » ، رفض الابن الضال الذي يعكس التمرّد الأصلي لآدم : رفضه للّه الذي خلقنا بالحبّ وبالحبّ نحن مُدعَّمين. إنه التمرّد الذي يضعني خارج الجنّة ، بعيداً عن الوصول لشجرة الحياة . إنه التمرّد الذي يجعلني أبدّد نفسي في « **بلدٍ بعيد** » .

بالنظر مرّة أخرى ، للوحة « رامبرانت » عودة الابن الضال ، أرى الآن ما هو أكثر من مجرّد حدث لبادرة الرحمة تجاه الابن المتمرّد.

الحدث الكبير أراه في نهاية التمرّد الكبير . التمرّد المغفور الذي لآدم ولكلّ أبنائه ، والوعد له بالحياة الأبديّة المجدّدة . يبدو لي الآن بأن هذه الأيدي دائماً ممدودة للخارج ، حتّى عندما لا يكون هناك كتفان تحتها لكي تستقرّ عليهما .

لم يسحب اللّه ذراعيه للوراء ، ولم يحبس بركته أبداً . ولم يتراجع أبداً عن النظر لابنه الضال كشخصٍ محبوب .

لكنه لا يستطيع إجبار ابنه على أن يبقى في البيت . لا يستطيع فرض حبّه على ابنه المحبوب . بل يَدعه يذهب بحريّة، بالرغم من معرفته بالألم الذي سيسبّبه لكلّ منهما .

إن الحبّ الذي منعه من الاحتفاظ بابنه في البيت هو نفس الحبّ الذي سمح له بأن يدع ابنه يختار حياته الخاصّة ، حتّى مع مخاطر الضياع .

هنا يكمن سرّ حياتي : إنني محبوبٌ جداً، ولهذا أُترَك حرّاً حتّى لو غادرتُ البيت .

البَركة هنا من البداية ، وأنا تركتها وابتعدت ، لكن الآب دائماً يبحث عنّي دائماً ، يستقبلني بذراعيه الممدودتين ، ويهمس في أذني ثانيةً : « **أنت ابني الحبيب الذي عنه رضيت** ».

عودة الابن الأصغر

« فلمَّا أنفَقَ كُلَ شيءٍ ، أصابَت تِلكَ البلادَ مَجاعةٍ قاسيَةٍ ، فوقَعَ في ضيقٍ. فلَجأ إلى العَمَلِ عِندَ رَجُلٍ مِنْ أهلِ تِلكَ البِلادِ ، فأرسَلَهُ إلى حُقولِهِ ليَرعى الخنازيرَ. وكانَ يَشتَهي أنْ يَشبَعَ مِنَ الخُرنُوبِ الذي كانَتِ الخنازيرُ تأكُلُهُ ، فلا يُعطيهِ أحدٌ. فرَجَعَ إلى نَفسِهِ وقالَ : كم أَجيرٍ عِندَ أبي يَفضُلُ عَنهُ الطَّعامُ ، وأنا هُنا أموتُ مِنَ الجوعِ. سأقومُ وأرجِعُ إلى أبي وأقولُ لَه : يا أبي، أخطَأتُ إلى السماءِ وإلَيكَ ، ولا أستحِقُّ بَعدُ أنْ أُدعى لكَ اَبنًا، فعامِلْني كأَجيرٍ عِندَكَ.

فقامَ ورجَعَ إلى أبيهِ ».

(لو ١٥ : ١٤-٢٠ أ) .

أن تكون ضائعاً

إن الشاب الذي يحتضنه الأب ويُباركه في لوحة «رامبرانت» هو فقير ، بل وفقيرٌ جداً. لقد ترك البيت ولديه الكثير من الجاه والمال ، لقد اختار أن يعيش حياته الخاصّة بعيداً عن أبيه وجماعته . رجع بلا شيء : ماله ، صحّته ، كرامته ، احترامه لذاته ، سُمعته. لقد بدّد كلّ شيء .

يترك رامبرانت قليلاً من الشكّ حول ظروفه. فهو حليق الرأس . لم يعد شعره طويلاً مجعّداً كما رسم نفسه كمتعجرفٍ، كما كان الابن الضال جريئاً في طلبه . أصبحت رأسه كما لسجينٍ حلّ محلّ اسمه مجرّد رقم . عندما يُحلق شعر شخص، سواء كان في السجن أو في الحرب أو في معسكرات تعذيب ، فإن هذا يتمّ في طقوسٍ عقابيّة مُرهِقة ، ويُسلَب منه كلّ ما يُميِّز فرادته ، حتّى الملابس ، فإن رامبرانت يعطيه ملابس بالكاد تُغطّي جسده الهزيل .

الأب والرجل طويل القامة الواقف بجواره يُراقب المشهد إرتديا معطفين واسعين لونهما أحمر ، مما يُعطي لهما منزلةً رفيعةً وكرامة . الابن الراكع لا يرتدي معطفاً . الثوب التحتي الأصفر البني الممزق يُغطّي بالكاد جسده المُنهك الذي استنفذ كلّ قوّته . تُخبر قدماه قصّة مسيرة طويلة ومُذلّة . القدم اليسرى خرجت من صندلها الممزّق ، القدم اليمنى مُغطّاة جزئيّاً بصندلٍ مقطوع ، تتحدّث عن عذابٍ وبؤس .

هذا الشاب فقَدَ ملكيّة كلّ شيء ، ما عدا شيء واحد ، خنجره. العلامة الوحيدة المتبقّية من كرامته وهي خنجر قصير يتدلّى من جنبه كإشارة لأصله النبيل ، حتّى في خضمّ انحطاطه لا يزال متشبّثاً بحقيقة بنوّته ، وإلاَّ كان باع خنجره القيِّم رمز بنوّته . الخنجر هنا يوضّح لي أنه على الرغم من رجوعه كمتسوِّل ومنبوذ ، لم ينسَ أنّه لا يزال ابناً لأبيه . لقد كان يتذكّر هذه البنوّة ويُعطيها قيمةً ، وهي التي في النهاية شجّعته على العودة .

أرى أمامي شاباً ذهب بعيداً داخل أرضٍ أجنبيّة ، وفقَدَ كلّ شيء كان معه . أري الفراغ ، والإذلال ، والهزيمة ، وهو مَن كان قريباً جدّاً من منزلة أبيه ، الآن يظهر أسوأ من خَدم أبيه . لقد أصبح مثل عبدٍ .

ماذا حدث للابن في البلد البعيد ؟ بصرف النظر عن كلّ العواقب الماديّة والجسديّة ، ما هي العواقب الداخليّة على الابن عندما ترك البيت ؟ يُمكننا التنبؤ بتسلسل الأحداث .

لقد أصبح الابن الأصغر واعياً تماماً بضياعه عندما لم يُظهر أحد ممَن حوله اهتماماً به . اهتمّوا به فقط على قدر ما استخدموه لأغراضهم . لكن عندما فقَدَ ماله أصبح كأنه غير موجود بالنسبة لهم ، إنّه لصعبٌ عليَّ أن أتخيّل ماذا يعني أن تكون غريباً تماماً ، ولا يُظهِر لك أحدٌ ما أيّة علامة اهتمام . شعورٌ حقيقي بالوحدة نشعر به عندما نفقد الإحساس بأن لدينا أشياء مشتركة تجمعنا . عندما لم يعطه أحد الطعام الذي كان يُعطى للخنازير ، أدرك الابن الأصغر أنه لم يعد إنساناً .

أعي كم هو مهمّ أن تكون هناك درجةٌ من القبول ، تقوم على الخلفيّة المشتركة ، والتاريخ ، والرؤية ، والدين ، والتربية ، والعلاقات ، وأساليب الحياة ، والعادات ، والعُمر المشترك ، والمهنة .

عندما أُقابل شخصاً لأوّل مرّة أبحث دائماً عمّا هو مشتركٌ بيننا. وهذا يبدو طبيعيّاً ، وهو ردّ فعل تلقائي . عندما أقول : «أنا من هولندا » . فالإجابة في الغالب : « ياه ، لقد زرتها من قبل » ، أو « لديَّ صديقٌ هناك » ، أو أتحدّث عن طاحونة الهواء بها ، أو زهور التوليب ، أو الأحذية الخشبيّة .

أياً كان ردّ الفعل ، يوجد دائماً بحثٌ متبادل عن أداة ربط مشتركة . كلّما قلّ ما هو مشتركٌ بيننا ، كلّما كان وجودنا معاً أصعب ، وشعورنا بالاغتراب أكثر . عندما لا أعرف اللّغة ولا عادات الآخرين ، حينئذٍ لا أفهم أسلوب حياتهم أو دينهم ، أو طقوسهم، أو فنّهم ، وعندما لا أعرف طعامهم ولا طريقة أكلهم، أشعر أنّني أكثر من أجنبي وضائع .

عندما لم يعتبر الأشخاص المحيطون بالابن الضال أنّه إنسان، شعر بعزلةٍ عميقة . لقد كان ضائعاً حقّاً ، وهذا الضياع هو الذي أرجعهُ إلى صوابه .

صُدم عندما وعى باغترابه التامّ ، وأدرك فجأة أنه يسير في طريق الموت .

أصبحت علاقته مقطوعة بمصدر الحياة ، العائلة ، الأصدقاء ، الجماعة ، المعارف ، حتّى الطعام ، لقد أدرك أن الموت سيكون الخطوة الطبيعيّة التالية . في كلّ مرّة رأى بوضوح الطريق الذي اختاره وأين سيقوده ؛ تفهّم اختياره الخاصّ بالموت ؛ ويعرف أن خطوةً أخرى في الاتّجاه الذي اختاره يُمكن أن تودي به إلى تدمير الذات .

في هذه اللّحظة الحاسمة ، ما الذي كان يقوده لاختيار الحياة ؟ لقد أعاد اكتشاف ذاته العميقة.

إعلان البنوّة

مهما كانت خسارته ، سواء كانت مالاً ، أو أصدقاءً ، أو سمعةً، أو احترام الذات ، أو الفرح والسلام الداخلي ، فهو لا يزال ابناً لأبيه. ولذا قال لنفسه : « **كم أجيرٍ عِندَ أبي يَفضُلُ عَنهُ الطَّعامُ ، وأنا هُنا أموتُ مِنَ الجوعِ. سأقومُ وأرجِعُ إلى أبي وأقولُ لَه : يا أبي ، أخطَأتُ إلى السماءِ وإلَيكَ ، ولا أستحِقُّ بَعدُ أنْ أُدعى لكَ ابنًا، فعامِلْني كأجيرٍ عِندَكَ** » . بتلك الكلمات في قلبه ، استطاع أن يترك البلد الغريبة ، ويعود للبيت .

معنى عودة الابن الأصغر عبَّر عنه بإيجازٍ بليغ بالكلمات : « **يا ابي ... ولا استحقّ بعد ان أُدعى لك ابناً** » . يُدرك الابن الأصغر أنه فقَدَ كرامة بنوّته . ولكن في نفس الوقت الإحساس بكرامته المفقودة جعله أيضاً واعياً أنه حقّاً الابن الذي لديه كرامة تُفقَد .

عودة الابن الأصغر تأخذ مكاناً في نفس اللّحظة التي يستعيد فيها بنوّته . على الرغم من فقد الكرامة. وفي الواقع ، إن ضياع كلّ شيء أوصله إلى الهاوية . لقد أُصيب الأساس الوطيد لبنوّته .

عندما وجد نفسه يُعامَل أقلّ من الخنازير ، وعيَ إنسانيّته وبنوّته . هذا الوعي أصبح الأساس لاختياره الحياة بدلاً من الموت .

لحظة إدراكه حقيقة بنوّته ، أستطاع سماع الصوت الذي يدعوه المحبوب ، وشعر ، على الرّغم من البُعد ، بلمسة البركة . هذا الوعي وهذه الثقة في حبّ أبيه ، أعطته القوّة ليُعلن لنفسه بنوّته ، ورغم الإعلان لم يقدر أن يؤسّس عليه أي استحقاق .

منذ سنواتٍ قليلة مضت ، كنتُ أنا، وبشكلٍ ملموس ، في مواجهةٍ مع الاختيار : أعود أو لا أعود . كانت لديّ صداقات ، في بدايتها أعطت لي وعداً بالحياة ، ولكنها أبعدتني تدريجياً عن البيت ، حتّى أنني وجدت نفسي أخيراً مهووساً بها .

بالمعنى الروحي ، وجدت نفسي مُبَذِّراً كلّ ما أعطاني إياه أبي كي أحافظ على تلك الصداقة حيّةً .

لم أستطع الصلاة بالمرّة . فقدت الاهتمام بعملي ووجدتُ صعوبةً في الانتباه للناس . رغم إدراكي للدمار الذي لحق بأفكاري وتصرّفاتي ، ظللتُ منجذباً للطُرق المضلّلة للحصول على الإحساس بقيمة ذاتي بسبب جوع قلبي . وعندما انهارت تلك الصداقة تماماً ، اتيح لي اختيار ما بين هدم نفسي أو الثقة بأن الحبّ الذي كنتُ أبحث عنه في الواقع موجود ، وهو العودة للبيت !

كان يهمس في أذني صوتٌ خافت يقول : لا يُمكن لكائنٍ بشري أن يعطيني الحبّ الذي أرغب فيه بشدّة ، لا صداقة ، ولا علاقة حميميّة ، ولا جماعة تقدر أبداً أن تُشبع احتياجاتي الأكثر عُمقاً لقلبي المتمرّد .

هذا الصوت الخافت والمُثابر يُكلّمني عن دعوتي ، عن عهودي المُبكّرة . عن العطايا العديدة التي استقبلتها في بيت أبي. هذا الصوت يدعوني « الابن ». آلام الهَجر شديدة جداً تجعل من الصعب تصديق هذا الصوت ، لكن أصدقاءً رأوا يأسي وأخذوا يُشجّعونني على أن أتجاوز آلامي ، وأثق أن هناك شخصٌ ما ينتظرني بالبيت .

أخيراً. اخترت الامتناع عن الملذّات بدلاً من الانغماس فيها ، والذهاب إلى مكان للخلوة ، وهناك في عزلتي ، بدأت أسير نحو البيت ببطءٍ وتردّد ، وسمعتُ بوضوح أكثر الصوت الذي يقول: « أنت محبوبي ، وفيك رضاي » . هذا مؤلم ، ولكن فيه رجاء ، هذه الخبرة أوصلتني إلى لبّ الصراع الروحي للاختيار الصحيح . يقول اللّه : « **أنظروا ، ها أنا اليوم ... جعلت بين أيديكم الحياة والموت والبركة واللّعنة ، فاختاروا الحياة لتحيوا... أحبّوا الربّ إلهكم واسمعوا كلامه وتمسّكوا به** » (تث ٣٠ : ١٥-٢٠) .

في الواقع ، هو سؤال حياة أو موت . هل نقبل رفض العالم الذي يسجننا ، أو نُعلن حريّة أبناء اللّه ؟

يجب علينا الاختيار. لقد خان يهوذا يسوع . وبطرس أنكره ، لقد كان كلّ منهما ابناً ضالاً .

لم يَعُد يهوذا قادراً على التمسّك بالحقيقة ، بأنه لا يزال ابناً للّه ، فشنق نفسه ، وبطرس في خضمّ يأسه تمسّك بها وعاد بدموعٍ كثيرة . اختار يهوذا الموت ، واختار بطرس الحياة . وأنا أُدرك أن هذا الاختيار دائماً أمامي .

أُجرِّب باستمرار التمرّغ في ضياعي ، وأفقد العلاقة مع الخير الأصلي الذي فيَّ . أعطاني اللّه أن أكون إنساناً ، وهي بركتي الأساسيّة . هذا يحدث مراراً وتكراراً حينما أقول لنفسي : « أنا غير نافع ، وسيئ ، وغير محبوب ، أنا لا قيمة لي » . يوجد دائماً أحداثٌ ومواقف عديدة أقدر أن أرصدها لأقنع نفسي والآخرين بأن حياتي لا تستحقّ أن تُعاش . إنني مجرّد عبء إضافي ، أسبب مشاكل ، ومصدرٌ للصراع ، أو مُضيّعاً لوقت وطاقة الناس .

يعيش العديد من الناس في هذه الظُلمة وهذه المشاعر السلبيّة تجاه أنفسهم . وعلى النقيض من الابن الضال ، سمحوا للظُلمة أن تبتلعهم تماماً حيث لا توجد أي إنارة تُساعد على التحوّل في اتّجاه العودة .

من المحتمل ألاَّ ينتحروا جسديّاً ، لكن روحيّاً لم يعودوا على قيد الحياة . لقد تخلّوا عن الإيمان بالخير الأصلي فيهم ، وبالتالي في أبيهم الذي أعطاهم إنسانيّتهم .

عندما خلق اللّه الرجل والمرأة على صورته رأى أنه « **حسنٌ جداً** » ، وعلى الرّغم من تأثير الظُلمة المحيطة ، لا يستطيع رجلٌ أو إمرأة في أي وقت أن يُغيِّر هذا .

لا تستطيع الظُلمة المحيطة بي أن تقنعني بأنّي لست حسناً جدّاً ، وأنني أستطيع فقط أن أصبح حسناً عندما أكتسب محاسني بواسطة « صنعها » عندما أصعد سُلّم النجاح . هذه الظُلمة تقودني سريعاً لنسيان الصوت الذي يدعوني ابني الحبيب ، مُذكِّراً إياي بأني محبوب في كياني بعيداً عن أي إنجازٍ أو شُهرة . هذه الظُلمة تُشوّش على ذاك الصوت الرقيق ، الذي يُعطيني النور ، والذي يظلّ يدعوني : « **ابني الحبيب** » ، هذه الظُلمة تجعلني أشكّ بأن اللّه المحبّ ينتظرني في صميم كياني .

إن مغادرة البلد البعيد هي مجرّد بداية ، والطريق إلى البيت طويلٌ وشاق .

ماذا يحدث في طريق العودة للأب ؟

لقد تذكَّر الابن الضال بنوّته ، وقال لنفسه : سأترك هذا المكان « **سأقومُ وأرجِعُ إلى أبي وأقولُ لَه : يا أبي ، أخطَأتُ إلى السماءِ وإلَيكَ ، ولا أستحِقُّ بَعدُ أنْ أُدعى لكَ اَبنًا، فعامِلْني كأجيرٍ عِندَكَ** » .

عندما قرأتُ تلك الكلمات ، دارت معركةٌ في رأسي بأي طريقة سأعبِّر عن نفسي ، الاعتذار أم التباهي ، التبرير أم الدفاع ، استحقاق المديح أم الشفقة .

يبدو لي أنّي دائماً في حوارٍ طويل مع والديَّ الغائبين ، أتوقّع أسئلتهما وأجهّز إجاباتي . إنّي لمندهشٌ لإهدار طاقتي العاطفيّة في الحوار الداخلي والتذمّر .

نعم ، لقد تركتُ المدينة البعيدة ، وها أنا عائدٌ إلى البيت ، لكن لماذا كلّ هذا الإعداد للخُطب التي لن تنقذني أبداً ؟ السبب واضح على الرّغم من الإدّعاء بهويّتي الحقيقيّة كابن للّه ، أنا لا زلت أعيش كما لو أن اللّه الذي أنا عائدٌ إليه يطلب منّي تفسيراً . لا زلت أفكِّر في حبّ اللّه كحبٍّ مشروط ، وبيت أبي كمكانٍ أنا لم أعد متأكِّد منه تماماً . بينما أسير نحو البيت ، لديَّ شكوك تخالجني عمّا إذا سُيرحَّب بي عندما أصل هناك .

عند النظر إلى مسيرتي الروحيّة ، ورحلتي الطويلة المُتعِبة للعودة للبيت ، أرى كم كانت مملوءة بالشعور بالذنب عن الماضي والقلق على المستقبل . أدركت فشلي وعرفت أنّني فقدت كرامة بنوّتي ، لكن لم أكن بعد قادراً على تصديق حقيقة أنه « عندما يكون الضعف عظيماً تكون النعمة دائماً أعظم » . لا زلت متشبّثاً بإحساسي بعدم الاستحقاق ، أتصوّر لنفسي مكاناً أقلّ بكثير ، إن الإيمان القوي والغفران الكامل لن يأتيا بسهولة. خبرتي الإنسانيّة تقول إن الغفران يتلخّص في استعداد الطرف الآخر أن يتخلّى عن الانتقام ، وإظهار قدر من أعمال المحبّة.

الطريق الطويل إلى البيت

عودة الابن مملوءة بالغموض ، إنّه مُسافر إلى الجهة الصحيحة ، لكن يا له من ارتباك ! إنّه يعترف بعدم القدرة على صنعها بنفسه ، ويأمَل بأنه سيحصل على معاملةٍ أفضل كخادمٍ في بيت أبيه أكثر من كونه منبوذاً في أرضٍ أجنبيّة ، لكنه لا يزال بعيداً عن الثقة في حبّ أبيه .

يعرف أنّه لا يزال الابن ، لكن يقول لنفسه إنّه فقد الكرامة بأن يُدعى « **ابناً** » ، واعداً نفسه بأن يقبل الوضع « **كأجير** » لذلك سيتمكّن ، على الأقلّ ، من أن يعيش .

هناك توبة ، لكنها ليست في نور الحبّ الكبير للّه الغفور ، إنها توبةٌ لخدمة مصالح ذاتيّة توفِّر إمكانيّة البقاء على قيد الحياة . أنا أعلم أن هذه حالة العقل والقلب .

ومثل القول : « حسناً ، أنا لا أستطيع صُنعها بنفسي ، يجب علىّ أن أعرف أن اللّه هوالمصدر الوحيد الباقي لي . سأعود للّه وأسأله المغفرة على أمل الحصول على الحدّ الأدنى من العقاب ، والسماح لي أن أعيش في ظروف أعمال شاقّة » . يظلّ اللّه قاسياً ، وديّاناً ، هذا هو اللّه الذي يجعلني أشعر بالذنب والقلق ويستدعي فيَّ كلّ هذه الاعتذارات لخدمة المصالح الذاتيّة ، والخضوع لهذا الإله لا يخلق الحريّة الداخليّة الحقيقيّة ، لكنّه فقط يولِّد المرارة والاستياء. واحدة من أعظم التحدّيّات في الحياة الروحيّة هي كيف نستقبل غفران اللّه .

هناك شيءٌ فينا كبشرٍ يجعلنا متعلّقين بخطايانا ، ويمنعنا من السماح للّه بمحو خطايا ماضينا ، ويُتيح لنا بدايةً جديدةً تماماً .

أحياناً يبدو لي كما لو أنّي أريد أن أُبرهن للّه بأن ظلامي عظيم والتغلّب عليه صعب . وبينما يُريد اللّه أن يهبني ملء كرامة البنوّة . أستمرّ في تأكيد الاكتفاء بوضع الخادم الأجير.

هل أُريد حقّاً أن يُغفَر لي ؟ هل يُمكنني الثقة بنفسي ، وبإمكانيّة حدوث هذا الإصلاح الجذري ؟ هل أُريد أن أتراجع عن تمرّدي العميق ضدّ اللّه ، وأُسلِّم ذاتي لمحبّته ؟

إن قبول المغفرة يتطلّب استعداداً كلّيّاً ، كي يُحقّق اللّه لي الشفاء والتجديد والإحياء. وهذا لا يتناسب مع الحلول الجزئيّة، على سبيل المثال بأن أصبح خادماً أجيراً ، وأحافظ على مسافاتي ، هكذا لا زلت أتمرّد ، أرفض ، أهرب ، أو أشكو من تدنّي مرتبتي كابنٍ محبوب ، إذ لا بدّ وأن أستعيد ملء كرامتي ، وأبدأ في إعداد نفسي لكي أصبح أباً .

من الواضح أن هناك فرقاً كبيراً بين الدوران حول البيت والعودة إليه . العودة تحتاج إلى الحكمة والفطنة. فطنة أن أصبح ابناً للّه . لقد أوضح يسوع أن الطريق إلى اللّه هو نفس الطريق إلى الطفولة الجديدة . « **إن كنتم لا تتغيّرون وتصيرون مثل الأطفال فلن تدخلوا ملكوت السموات** » (مت ١٨:٣) .

لم يطلب منّي يسوع أن أظلّ طفلاً ، لكن لكي أصير إنساناً لا بدّ أن أصير طفلاً ، وهذا بأن أعيش البراءة الثانية : ليست براءة طفل حديث الولادة ، لكنها براءة أصِلُ إليها من خلال اختياراتٍ واعية .

كيف يُمكن وصف هؤلاء الذين يجب أن يصلوا للطفولة ، أو البراءة الثانية ؟ لقد وصفهم يسوع بوضوح في التطويبات بعد وقتٍ قصير من سماع الصوت الذي يدعوه ابني الحبيب ، وبعد رفضه لصوت المُجرِّب الذي كان يدفعه بجسارة لأن يُبرهِن للعالم بأنه مستحقّ أن يكون محبوباً .

« **صعد** (يسوع) **إلى الجبل وجلس ، فدنا إليه تلاميذه ، فأخذ يُعلّمهم قال : هنيئاً للمساكين في الروح... ، للمحزونين... ، للودعاء... ، للجياع والعطاش إلى الحقّ... ، للرحماء... ، لانقياء القلوب... ، لصانعي السلام... ، وللمضطهدين من أجل الحق...**» (مت ٥ : ١-١٠).

هذه الكلّمات حاضرة في صورة ابن اللّه . إنها صورة يسوع نفسه ، الابن الحبيب . إنها صورتي أيضاً التي يجب أن تكون . تُقدِّم لي التطويبات أفضل طريق للعودة لبيت أبي .

على طول هذا الطريق سأكتشف فرح الطفولة الثانية : الراحة . والرحمة . ورؤية أوضح للّه . وعندما أصل للبيت وأشعر بحضن أبي . سأدرك أنّه ليس فقط السماء ستفرح ، ولكن الأرض بالمِثل ستُصبح ميراثي ، مكاناً حيث أقدر أن أعيش في حريّة بدون كبتٍ وإكراه.

أن تصير طفلاً يعني أن تعيش التطويبات ، وأن تسير في الطريق الضيّق إلى الملكوت .

هل عرف « رامبرانت » هذا ؟

لا أعلم ، لكن بالنظر إلى رأس الولد العائد للبيت ، أقدر أن أرى الطفولة الثانية مرسومة.

أتذكَّر بوضوح عرض « لوحة رامبرانت » لأصدقاء وسؤالهم عمّا يرون. واحدة منهم ، إمرأة شابة ، وقفت ومشيت نحو اللّوحة، ووضعت يديها على رأس الابن الأصغر وقالت : « هذا رأس طفلٍ صغير مولود حالاً من بطن أمّه ، أنظر إنها لا زالت مبلّلة ، والوجه لا زال مثل الجنين ». فجأة رأى كلّ الحاضرين ما رأته.

هل كان رسم « رامبرانت » ليس فقط العودة للأب ، بل أيضاً العودة لأحشاء اللّه الذي هو أمّ كما هو أب ؟

حتّى إني فكَّرت في الرأس الحليق للولد كرأس سجين ، أو رأس شخص يعيش في معسكرات التعذيب ، لقد فكَّرتُ في وجهه كوجهٍ هزيلٍ لرهينةٍ تُعامَل بقسوة .

وهذا ربّما كلّ ما أراد « رامبرانت » أن يُظهِره . لكن منذ اللقاء مع أصدقائي ، لم يعد ممكناً لي النظر إلى اللّوحة بدون رؤية طفل رضيع يدخل مجدّداً إلى بطن أمّه.

يُساعدني هذا لفهم أكثر وضوحاً للطريق الذي أسير فيه نحو البيت . أليس الطفل الصغير فقيراً، وديعاً، ونقي القلب ؟ ألا يبكي الطفل الصغير استجابة للألم الذي يُعاني منه ؟

أليس الطفل الصغير جائعاً لصُنع السلام وعطشان للبرّ وهو الضحيّة الأولى للاضطهاد ؟

وماذا عن يسوع نفسه ، كلمة اللّه ، الذي أصبح إنساناً ، ظلّ تسعة أشهر في بطن العذراء مريم ، وأتى للعالم كطفلٍ صغير ؟ الابن الأبدي أصبح طفلاً ، لذا عليَّ أن أصبح طفلاً ثانيةً ، كشرطٍ لدخول ملكوت الآب .

« **الحقّ الحقّ أقول لك : ما من أحد يُمكنه أن يرى ملكوت اللّه إلاّ إذا وُلد ثانيةً** » (يو٣: ٣) .

الضال الحقيقي

وأنا هنا ألمس سرّ يسوع نفسه ، الذي ترك بيت أبيه السماوي ، ثُمَّ أتى إلى بلدٍ بعيد ، وقد وهب كلّ ما لديه ، وعاد بواسطة صليبه لبيت الآب من أجلنا . لقد فعل كلّ هذا ، ليس كابنٍ متمرّد ، ولكن كابنٍ مطيع ، أُرسِلَ لكي يجمع كلّ أبناء اللّه للبيت .

عندما بدأت أفكِّر في المَثَل وفي « لوحة رامبرانت » لم يخطر ببالي أن يكون هذا الشاب المُنهك ، مع وجه طفل ، مولوداً جديداً مثل يسوع .

لكن الآن ، بعد ساعاتٍ عديدة من التأمّل العميق ، أشعر ببركة هذه الرؤية . ألم يكن الشاب المُنكسِر راكعاً أمام أبيه كـ « **حمل اللّه الذي يحمل خطايا العالم** » ؟ أليس هو البريء الذي أصبح خطيئةً من أجلنا ؟ الذي لم يعتبر « **مساواته للّه غنيمة** » لكن أصبح كالبشر ، أليس هو ابن اللّه البار الذي صرخ على الصليب : « **إلهي إلهي لماذا تركتني ؟** » .

تشبيه يسوع بالابن الضال في اللّوحة يذهب أبعد من التفسيرات التقليديّة للمَثَل . هذه الرؤية تحمل سرّاً عظيماً . أكتشف تدرجيّاً ماذا يعني قول : إن بنوّتي وبنوّة يسوع متشابهتان، وبيتي وبيت يسوع واحد. لا توجد مسيرة نحو اللّه خارج المسيرة التي سارها يسوع .

الذي أخبر قصّة الابن الضال هو الابن كلمة اللّه « **به خلق اللّه كلّ شيء في السماوات وفي الأرض ما يُرى وما لا يُرى** » (كول ١: ١٦) .

وعندما أنظر إلى قصّة الابن الضال بعيون الإيمان ، أرى في عودة الابن الكلمة إلى أبيه جَذْب لجميع الناس في شخصه وأعادتهم لبيت أبيه السماوي . كما قال القدّيس بولس : « **لأن اللّه شاء أن يحلّ فيه الملء كلّه وأن يُصالح به كلّ شيء في الأرض كما في السماوات** » (كول ١ : ١٩-٢٠) .

الأخ بطرس ماري ، مؤسِّس أخوّة أورشليم ، وهي جماعة رهبانيّة تعيش في المدينة ، يُشبّه يسوع بالابن الضال بطريقةٍ شاعريّة وكتابيّة. كتب يقول :

« هو ، الذي لم يولَد من زرعٍ بشري ، أو رغبة إنسان ، أو إرادة بشر ، لكن من اللّه نفسه ، كان كلّ شيء تحت قدميه ، لكنه ترك ميراثه ، ترك لقبه كابن ، وغادر إلى بلدٍ بعيد حيث أصبح بشراً وأفرغ ذاته.

لم تقبله خاصّته ، وسريره الأوّل كان من القشّ ! كجزعٍ في أرضٍ قاحلة ، نمى قُدامنا ، كان مرذولاً كأدنى الناس ، أمامه المرء يُغطّي وجهه . نُفي ولم يعد له موضعٍ ، عرف الوحدة والغُربة بعد أن أعطى كلّ شيء في الحياة ، ثروته ، سلامه ، نوره، حقيقتهُ ، حياته ... كلّ كنوز المعرفة والحكمة المخفيّة منذ القِدَم .

وبعد أن فقد نفسه بين الأبناء الضالين من بيت إسرائيل ، قضى وقته مع المرضى وليس الأصحاء ، مع الخطأة وليس الأبرار ، وحتّى مع الخاطئات اللاتي وعدهنّ بدخول ملكوت أبيه ؛ وتعامل مع شاربي الخَمر ، وصادق العشّارين والخطأة ، وعاملوه كسامري وكمجدّف على اللّه ؛ قدَّم كلّ شيء ، حتّى جسده ودمه ؛ بعد أن كابد في نفسه الحزن ، واضطربت نفسه حتّى الموت .

كلّ هذا مرّ به طوعاً كمتروكٍ من أبيه ، بعيداً عن نبع الماء الحي ، صرخ من على الصليب الذي سُمِّر عليه : **أنا عطشان** . مات ودُفن في القبر وغشيته ظلال الموت ونزل إلى الجحيم مثقلاً بجرائمنا كلّنا، حاملاً خطايانا وأحزاننا. وفي اليوم الثالث قام ، من بين الأموات ، ووقف منتصراً وقال : **أنا صاعدٌ إلى أبي وأبيكم ، إلهي وإلهكم** .

وفي مَثَل الابن الضال : **فقالَ الأبُ لخَدَمِه : أسرِعوا ! هاتُوا أفخَرَ ثوبٍ وألْبِسوهُ ، وضَعُوا خاتَمًا في إصبَعِه وحِذاءً في رِجلَيهِ. وقَدِّموا العِجلَ المُسمَّنَ واذبَحوهُ ، فنَأكُلَ ونَفرَحَ ، لأنَّ ابني هذا كانَ مَيِّتًا فعاشَ ، وكانَ ضالاً فَوُجِدَ . فأخذوا يَفرَحونَ** » .

عند النظر مرّة ثانية ، بطريقةٍ جديدة ، إلى الابن الضال في « لوحة رامبرانت » ، أراه مِثْل يسوع عائداً إلى أبيه وأبي ، إلهه وإلهي . من غير المرجَّح أن رامبرانت فكَّر في الابن الضال بهذه الطريقة .

هذه الرؤية لم تكن واردة في الوعظ والكتابة في وقته . ومع ذلك ، أن ترى في هذا الشاب المُتعَب والمُنكسِر شخص يسوع نفسه ، فهذا يُعطي كثيراً من الراحةٍ والتعزية .

الشاب الذي يحضنه أبوه لم يعد مجرَّد خاطئ تائب ، لكنه يُمثِّل كلّ البشريّة عائدةً إلى اللّه .

الجسد المُنكسر للابن الضال يُصبح الجسد المُنكسر للبشريّة، ووجه الابن العائد يُصبح وجه المعذَّبين الذين يتوقون إلى الدخول مرّة أخرى إلى الفردوس المفقود.

لذلك تُصبح « لوحة رامبرانت » أكثر من مجرَّد صورة مؤثِّرة للمَثَل . إنها تُصبح مُلخَّص لتاريخ خلاصنا.

النور المحيط بكلّ من الأب والابن يتكلّم عن المجد الذي ينتظر أبناء اللّه . إنّه يدعو إلى الذهن الكلمات العظيمة للقدّيس يوحنّا : « **يا أحبّائي نحن الآن أبناء اللّه ، وما انكشف لنا بعد ماذا سنكون . نحن نعرف أن المسيح متى ظهر نكون مثله ، لأننا سنراه كما هو** » (١يو٣:٢) .

لكن لا « لوحة رامبرانت » ، ولا المَثَل الذي تُصوّره اللّوحة يتركنا في حالة ابتهاج .

عندما أرى المشهد المركزي لعِناق الأب لابنه العائد في اللّوحة، لم أكن منتبهاً لوجود أربعة متفرّجين يُراقبون المشهد. لكني الآن أعرف وجوه هؤلاء المحيطين بمشهد « العودة ».

يُمكننا أن نقول إنهم غامضون ، ولا سيّما الرجل طويل القامة الواقف في الجانب الأيمن للّوحة . نعم ، يوجد جمالٌ ، مجدٌ... لكن هناك أيضاً عيونٌ ناقدة لمتفرِّجين غير ملتزمين .

إن مسيرة الابن الأصغر لا يُمكن أن تنفصل عن أخيه الأكبر. لذلك سأحوِّل انتباهي للابن الأكبر .

الجزء الثاني

الابن الأكبر

« وكانَ الابنُ الأكبرُ في الحَقلِ ، فلمَّا رجَعَ واَقتَرَبَ مِنَ البَيتِ، سَمِعَ صَوتَ الغِناءِ والرَّقصِ. فدَعا أحَدَ الخَدَمِ وسأَلَهُ : ما الخَبرُ ؟ فأجابَهُ : رجَعَ أخوكَ سالِمًا، فذبَحَ أبوكَ العِجْلَ المُسَمَّنَ. فغَضِبَ ورَفَضَ أنْ يَدخُلَ. فخَرَجَ إلَيهِ أبوهُ يَرجو مِنهُ أنْ يَدخُلَ ، فقالَ لأبيهِ : خَدَمْتُكَ كُلَ هذهِ السِّنينَ وما عَصَيتُ لكَ أمرًا، فما أعطَيتَني جَدْيًا واحدًا لأفرَحَ بِهِ معَ أصحابي. ولكنْ لَمَّا رجَعَ اَبنُكَ هذا، بَعدَما أكَلَ مالَكَ معَ البَغايا، ذَبَحتَ العِجلَ المُسَمَّنَ !

فأجابَهُ أبوهُ : يا اَبني ، أنتَ مَعي في كُلِّ حِينٍ ، وكُلُّ ما هوَ لي فهوَ لكَ. ولكِنْ كانَ علَينا أنْ نَفرَحَ ونَمرَحَ ، لأنَّ أخاكَ هذا كانَ مَيِّتًا فَعاشَ ، وكانَ ضالاً فَوُجِدَ » .

(لو ١٥ : ٢٥-٣٢) .

رامبرانت والابن الأكبر

أثناء الوقت الذي قضيته في « الأرميتاج » ، كنتُ أنظر إلى اللّوحة ، ولم أتسأل أبداً ولو للحظة عن الرجل الواقف على الجانب الأيمن منها ، إنّه الابن الأكبر . والطريقة التي يقف بها هناك ناظراً الى الإماءة الرائعة للترحيب لا يترك مكاناً للشكّ فيما أراد رامبرانت أن يرسمه .

لقد كتبتُ العديد من الملاحظات التي تصف هذه النظرة العابسة لهذا المُلاحِظ البعيد ، وهناك أرى كلّ شيء أخبرنا به يسوع عن الابن الأكبر ، الذي بحسب المَثَل لم يكن موجوداً في البيت عندما احتضن الأب ابنه العائد ، وأظهَر له رحمته. بالعكس ، أظهر المَثَل أنه عندما عاد من عمله ، وجد حفل الترحيب غير العادي بأخيه في البيت .

اندهشتُ كيف ببساطة فقدتُ التعارض بين رسم رامبرانت والمَثَل ، وببساطة أخذته كأمرٍ مُسلَّم به . أراد رامبرانت أن يرسم كلاً من الأخوَين في لوحة الابن الضال .

عندما رجعتُ إلى البيت وبدأتُ في قراءة كلّ الدراسات التاريخيّة للّوحة ، أدركتُ بسرعة أن العديد من النقّاد كانوا أقلّ تأكّداً منّى في تحديد هويّة هذا الرجل الواقف يميناً .

البعض وصفه كرجلٍ عجوز ، والآخرين تسألوا عمّا إذا كان رامبرانت رسم نفسه .

ولكن يوماً ما ، بعد أكثر من عام من زيارتي إلى «الأرميتاج»، كنتُ مع صديقٍ لي أتناقش في كثير من الأحيان في هذه اللّوحة، أرسل لي نسخةً من دراسة قيّمة عن «الأهميّة الدينيّة للوحة الابن الضال لرامبرانت ». هذه الدراسة البارعة التي تضع اللّوحة في سياق تقاليد رسم الأيقونات في عصر رامبرانت جلبت الابن الأكبر مرّة أخرى في الصورة .

أظهرت هذه الدراسة أن تفسير الكتاب المقدّس واللّوحات في وقت رامبرانت ، مَثَل الفريسي والعشار ، ومَثَل الابن الضال، كانا ذا صلةٍ قريبةٍ ببعضهما. اتّبع رامبرانت هذا التقليد، فنجد الرجل الجالس يقرع على صدره وينظر إلى الابن العائد يُمثِّل الخطأة والعشّارين ، بينما الرجل الواقف ينظر الى الأب بطريقةٍ غامضة ، فيكون هو الابن الأكبر ويُمثِّل الكتَبة والفرّيسيّين .

وضْع الابن الأكبر في اللّوحة دليلٌ واضح على أن رامبرانت لم يذهب أبعد من النصّ الحرفي للمَثَل فقط ، بل أبعد من تقاليد الرسم في عصره . وبالتالي تمسّك رامبرانت ، كما تقول الدراسة ليس بالحرف ولكن بروح النصّ الكتابي .

إن نتائج هذه الدراسة هي أكثر بكثير من مجرَّد تأكيد ما خمّنته ، بل ساعدتني على أن أرى عودة الابن الضال كعملٍ يُلخِّص المعركة الروحيّة العظيمة ، والاختيارات الكبرى التي تتطلّبها هذه المعركة.

في اللّوحة ليس فقط الابن الأصغر بين ذراعي أبيه ، ولكن الابن الأكبر أيضاً ، ما زال يستطيع اختيار موقف تجاه الحبّ الذي قدَّمه له أبوه أو ضدّه .

في خريف عامّ ١٩٨٣ ، عندما رأيتُ الرسم لأوّل مرّة ، ظهر الجزء المركزي للّوحة ، شعرتُ أنّي كنتُ مدعوّاً بصفةٍ شخصيّة لشيءٍ ما .

الآن أنا مُلمّ باللّوحة بطريقةٍ أفضل ، وخاصّةً بالشاهد البارز على اليمين ، وأنا مُقتنع أكثر من أي وقتٍ مضى بالتحدّي الروحي الهائل الذي تمثّله هذه اللّوحة .

عاش رامبرانت حياةً اتّسمت بثقةٍ كبيرة بالنفس ، وبالنجاح والشهرة ، تلاها العديد من الخسائر المؤلمة ، خيبات الأمل والفشل ، وعندما رسم هذه اللّوحة كان واضحاً تماماً له تشابه حياة الابن الأصغر مع حياته .

من خلال هذه الخبرة تحرّك النور من الخارج إلى الداخل ، من تصوير الأحداث الخارجيّة إلى تصوير المعاني الداخليّة ، من حياةٍ مملوءةٍ بأشياءٍ وأشخاص ، إلى حياةٍ اتّسمت أكثر بالعُزلة والصمت . ومع التقدُّم في العمر نمت أكثر حياته الداخليّة . إنها العودة الروحيّة .

لكن الابن الأكبر هو أيضاً جزء من خبرة حياة رامبرانت ، والعديد من كُتّاب السيرة الذاتيّة المعاصرين ينتقدون الرؤية الرومانسيّة لحياته ، ويؤكّدون على أن رامبرانت كان خاضعاً لمطالب رعاته ، وحاجته للمال أكثر مما يُعتَقَد عموماً ، ولوحاته غالباً ما كانت نتيجة للموضات السائدة لعصره أكثر من رؤيته الروحيّة ، وبعض كُتّاب السيَر الذاتيّة يرون في رامبرانت أنانيّةً مُفرِطة ، ومُناوراً أكثر منه باحثاً عن حقيقةٍ روحيّة ، يؤكّدون أن العديد من لوحاته باهرة ، كما أن ليس لها طابع روحي كما تبدو .

كان ردّ فعلي الأوّلي على هذه الدراسات المجرّدة من الأسطورة عن رامبرانت أقرب إلى الصدمة . وهذا ما جعلني أتساءل عمّا إذا كان قد حدث «اهتداءٌ» ما في حياة رامبرانت .

إنّه واضح تماماً من دراساتٍ حديثة عديدة عن علاقة رامبرانت مع زبائنه الذين اشتروا أعماله ، وكذلك مع العائلة والأصدقاء ، أنه كان يصعب جدّاً التعامل معه .

يصفه أحد المتخصّصين بأنّه « شخصٌ حقودٌ وعنيف يستخدم كلّ الأسلحة المسموحة وغير المسموحة في الهجوم على الذين يعترضون طريقه ».

في الواقع كان رامبرانت يُعرف بسلوكه الأناني في كثيرٍ من الأحيان والمغرور والحقود . وهذا يظهر بوضوح أكثر في طريقة تعامله مع زوجته التي عاش معها ٦ سنوات ، حيث استخدم أخاها ، الذي كان يحمل توكيلاً عنها ، لـ « يجمع شهادة من الجيران ضدّها » ، لذلك تمكَّن من أن يُرسلها بعيداً لمأوى للمجانين ، حيث حُبِست في مؤسّسة للرعاية العقليّة . وعندما كانت هناك إمكانيّة للعفو عنها، « استأجر رامبرانت وكيلاً ليجمع الأدلّة ضدّها للتأكّد من بقائها في المصحّة » .

في عامّ ١٦٤٩ ، عندما بدأت هذه الأحداث المأساويّة ، كان رامبرانت مشغولاً جدّاً فلم يُنتج أي عمل ، وهنا يَظهر رامبرانت آخر : رجلٌ ضاع في المرارة والرغبة في الانتقام ، وقادرٌ على الخيانة ، من الصعب أن تنصحه . ليس من الصعب أن تتعاطف مع شخصٍ شهواني مُنغمس في اللّذات ، ثُمَّ تاب ورجع إلى البيت، وأصبح شخصاً روحيّاً ، لكن من الأصعب أن تُقدِّر شخصاً يشعر دائماً بالاستياء العميق ، ويُضيّع الكثير من وقته الثمين في القضايا الصغيرة المعروضة على المحاكم . وهو باستمرار يُنفِّر الناس بسلوكه المتعجرف .

على حدّ علمي ، يُشبه رامبرانت الابن الأكبر في المَثَل ، كذلك الابن الأصغر.

عندما رسم الابنين في اللّوحة ، لعلّه كان يُعبِّر عن حياته التي لم تكن بعيدة عن ضياع الابن الأكبر والأصغر ، واحتياج كلٍّ منهما لعِناق الأب الغفور . لكن في قصّة حياته ، كما في المَثَل واضح أن الاهتداء الأصعب هو اهتداء الشخص الذي يُقيم في البيت .

مغادرة الابن الأكبر

« وكانَ الابنُ الأكبرُ في الحَقلِ ، فلمَّا رجَعَ واَقتَرَبَ مِنَ البَيتِ، سَمِعَ صَوتَ الغِناءِ والرَّقصِ. فدَعا أحَدَ الخَدَمِ وسألَهُ : ما الخَبرُ ؟ فأجابَهُ : رجَعَ أخوكَ سالِمًا، فذبَحَ أبوكَ العِجْلَ المُسَمَّنَ. فغَضِبَ ورَفَضَ أنْ يَدخُلَ. فخَرَجَ إلَيهِ أبوهُ يَرجو مِنهُ أنْ يَدخُلَ ، فقالَ لأبيهِ : خَدَمْتُكَ كُلَ هذهِ السِّنينَ وما عَصَيتُ لكَ أمرًا، فما أعطَيتَني جَدْيًا واحدًا لأفرَحَ بِهِ معَ أصحابي. ولكنْ لَمَّا رجَعَ اَبنُكَ هذا، بَعدَما أكَلَ مالَكَ معَ البَغايا، ذَبَحتَ العِجلَ المُسَمَّنَ ! » .

(لو ١٥ : ٢٥-٣٠) .

الوقوف بيدين متشابكتين

عندما كنتُ أنظر لـ « لوحة رامبرانت » كنتُ أُركِّز كثيراً على شخصيّة الابن الأكبر . وأذكر أنّني حدّقت فيه لفترات طويلة وتساءلت عمّا كان يدور في عقل هذا الرجل وقلبه ، إنّه المُراقب الرئيسي لعودة الابن الأصغر .

في البداية عندما كنتُ أُركِّز على جزء اللّوحة الذي فيه يُعانِق الأب ابنه العائد كان من السهل ، نوعاً ما ، إدراكها كدعوة للطمأنينة، ولكن عندما نظرتُ إلى كلّ اللّوحة أدركتُ سريعاً تعقّد اللقاء العائلي .

المُراقب الرئيسي يُشاهد عِناق الأب لابنه العائد ، وهو يظهر كمنسحبٍ ، وينظر إلى الأب نظرة خالية من الفرح .

لم يبسط يديه ، ولم يبتسم ، أو يُعبِّر عن ترحيبه . هو ببساطة يقف هناك على جانب اللّوحة . صحيح أن حدث «العودة» يُعدّ الحدث المركزي في اللّوحة ، لكنه لا يقع في المركز المادّي على القماش ، إنه على الجانب الأيسر من اللّوحة، بينما الابن الأكبر الطويل القاسي يُسيطر على الجانب الأيمن.

توجد مساحةٌ واسعةٌ مفتوحة تفصل الأب عن ابنه الأكبر ، مساحة تخلق توتّراً يتطلّب حلاً.

يحتفظ المُراقب الرئيسي بمسافةٍ لأنّه ، فيما يبدو ، لا يُريد أن يُشارك في ترحيب الأب . ما الذي يحدث داخل هذا الرجل ؟ هل سيقترب ويُعانِق أخاه كما فعل الأب ، أم سيبتعد في غضبٍ واشمئزاز ؟

الطريقة التي رسم بها رامبرانت الابن الأكبر تجعله يُشبه أباه كثيراً . كلٌّ منهما مُلتحي ومُرتدي معطف أحمر كبير . هذه الأشياء الظاهريّة تفترض أنّه يوجد تشابه كبير مع الأب ، وهذا التشابُه يُؤكّده النور الذي على وجه الابن الأكبر ، ويربطه بطريقة مباشرة مع الوجه المُضيء لأبيه .

لكن يا له من اختلافٍ مؤلمٍ بين الإثنين ! الأب ينحني على ابنه العائد ، والابن الأكبر يقف منتصباً بتصنُّع ، وقفة بارزة بعصا طويلة تُلامس الأرض .

معطف الأب واسع ويتدلّى على الابن ، يدا الأب ممدودتان وتلامسان الابن العائد في وضع مَنح البركة ؛ بينما يدا الابن الأكبر متشابكتان بالقرب من صدره .

يوجد نورٌ على كلا الوجهين ، لكن النور الذي على وجه الأب ينتشر على جسده ، خاصّة على يديه ، وعلى الابن الأصغر في إضاءةٍ دافئة ؛ في حين النور الذي على وجه الابن الأكبر بارد ومشتّت ، وتبقى يداه في الظلّ .

المَثَل الذي رسمه رامبرانت في لوحته يُمكن أن نُطلق عليه « مَثَل الابنين الضالّين » ، لأنّه لا يُصوِّر فقط الابن الأصغر الذي ترك البيت لكي يبحث عن الحريّة والسعادة في بلدٍ بعيد فضاع ، لكن الابن الأكبر الذي ظلّ مُقيماً في البيت أصبح أيضاً رجلاً ضالاً . خارجيّاً عمل كلّ الأشياء الحسنة التي يُفتَرض أن يعملها ابنٌ صالح ، ولكن داخليّاً ابتعد عن أبيه . إنّه يعمل واجبهُ ، ويشتغل بجدٍّ كلّ يوم ، ويُنجز كلّ التزاماته ، لكنه يُصبح غير سعيد وغير حرّ .

ضاع في الاستياء

إنّه لصعبٌ عليَّ أن أعترف بأن الابن الأكبر الذي يشعر بالمرارة والغضب والحقد ، ربّما يكون أقرب إليَّ من الابن الأصغر الغارق في الشهوات . كلّما أفكِّر في الابن الأكبر أرى نفسي فيه .

ربّما يكون نموذج الابن الأكبر في أبناء أسرةٍ ما ، هو الابن الذي يُريد أن يعيش حسب توقّعات والديه ، ومعروف عنه الطاعة وعمل الواجب . وهو غالباً ما يرغب في أن ينال الرضى . إنه يخشى كثيراً أن يُسبِّب خيبة أملٍ لوالديه . لكنه في كثير من الأحيان يختبر ، في سنّ مبكِّرة ، نوعاً من الحَسد تجاه إخوته الأصغر سنّاً ، الذين يبدون اهتماماً أقلّ بإرضاء الأهل . وأكثر تحرّراً في عمل الأشياء التي تخصّهم .

بالنسبة لي ، كان هذا هو الحال ، وطوال حياتي أُعاني من ضجرٍ وفضولٍ غريب لأن أعيش حياةً عاصية لم أجرؤ أن أعيشها ، لكن كان يعيشها كثيرون حولي .

فعلتُ كلّ الأشياء الحسنة في حياتي ، معظمها امتثال لجداول أعمال وضعها العديد من الشخصيّات الوالديّة في حياتي : مدرّسين ، ومُرشدين روحيّين ، وأساقفة وبابوات ، لكن في نفس الوقت أتساءل : لماذا لم يكن لديَّ الشجاعة أن «**أسافر بعيداً**» ، كما فعل الابن الأصغر ؟

إنه لغريبٌ أن أقول هذا ، لكن عرفت كلّ مشاعر الحَسد تجاه الابن المتمرّد في أعماق قلبي . إنه احساسٌ يَظهر عندما أرى أصدقاء لديهم وقت مناسب ليفعلوا أشياءً أُدينها .

تستحقّ سلوكيّاتهم التوبيخ ، أو وصفها بأنها غير أخلاقيّة ، ولكن في نفس الوقت كنتُ أتساءل : لماذا لم يكن لديَّ الجرأة للقيام ببعض هذه الأفعال أو كلّها ؟

حياة الطاعة والواجب التي أنا فخورٌ بها ، والتي تكون سبباً للمديح ، أحياناً أشعر بأنها حملٌ على كتفيَّ ، وتضغط عليَّ باستمرار ، بالرغم من قبولي لها ، لدرجة أنّني لا أستطيع أن أُلقيها عنّي .

لم يكن لديَّ صعوبة في أن أرى نفسي في الابن الأكبر عندما يشكو : « **خَدمتُك كلّ هذه السنين وما عصيتُ لكَ أمراً، فما أعطيتني جدياً واحداً لأفرح به مع أصحابي** ».

في هذه الشكوى ، الطاعة والواجب أصبحا حِملاً ، والخدمة أصبحت عبوديّة . هذا ما حدث لي عندما انتقدني أحد الأصدقاء بأنّي لم أكن شخصاً مُصلّياً كما يجب . أغضبني انتقاده جدّاً ، وقُلت في نفسي : « كيف يتجرّأ ويُعلّمني درساً عن الصلاة ! عاش سنين عديدة حياةً غير منضبطة ، بينما أنا منذ حداثتي كنت مدقِّقاً وأعيش حياة الإيمان . الآن سو اهتدى ويُعلِّمني كيف أسلك ! » .

هذا الاستياء الداخلي يُظهِر لي « ضياعي » الشخصي. أقيم في البيت ولم أغادره ، لكن لم أعش قطّ حياةً حرّة في بيت أبي.

غضبي وحَسدي يُظهران لي عبوديتي . هذا لم يكن شيئاً فريداً بالنسبة لي . يوجد العديد من الأبناء والبنات الكبار الذين ضلّوا وهم لا يزالون بالبيت . وهذا الضياع يتّسم بالحُكم والإدانة ، الغضب والاستياء ، المرارة والغيرة ، وهذا ضار جدّاً بالقلب الإنساني .

في الغالب نُفكِّر في الضياع في إطار الأفعال المرئيّة ، لقد أخطا الابن الأصغر بطريقةٍ يسهُل معرفتها. فضياعه واضح تماماً. لقد أساء استخدام ماله ، ووقته ، وأصدقائه ، وجسده . ما عمله كان خطأ ؛ لم يعرف هذا عائلته وأصدقاؤه فقط ، بل هو نفسه قد عرف هذا ، لقد تمرّد ضدّ الأخلاق ، وسمح لنفسه أن يسير وراء شهواته الشخصيّة ومطامعه. هناك وضوح في سوء تصرّفه . ثُمَّ اكتشف أن هذا السلوك لا يؤدّي إلاَّ إلى البؤس ، فعاد الابن الأصغر إلى رُشده ، واستدار وطلب المغفرة.

لدينا هنا فشل تقليدي للإنسان ، مع حلٍّ مُباشر . وهكذا من السهل أن نفهمه ونتعاطف معه .

ضلال الابن الأكبر من الصعب اكتشافه . لقد فعل كلّ ما هو صحيح . كان مُطيعاً ، ويقوم بكلّ واجباته ، مُنفِّذاً للقانون ، ويعمل بجديّة ، يحترمه الناس ويُعجبون به ويمدحونه ، ويعتبرونه ابناً مثاليّاً ، كان الابن الأكبر لا عيب فيه ظاهريّاً .

لكن عندما كان في مواجهة فرح أبيه بعودة أخيه الأصغر ، انفجرت قوّة مُظلمة فيه وظهرت على السطح . أصبح فجأة غاضباً ومستاءً ومتكبِّراً وغير عطوف وأنانيّاً .

يوجد الكثير من الاستياء بين «المستقيمين» و«الأبرار». ويوجد الكثير من الحُكم والإدانة والأحكام المسبقة في داخلهم. ويوجد الكثير من الغضب المكتوم بين الناس الذين يهتمّون بتجنّب « الخطيئة » .

إن استياء « القدّيس » يُسبّب له ضياعاً يكون من الصعب اكتشافه ، لأن هذا الاستياء يكون مُقترناً بالرغبة في تحقيق الفضائل .

أعرف ، من حياتي الشخصيّة ، كيف حاولتُ باجتهاد أن أكون حَسن السيرة ومقبولاً ومحبوباً ومثالاً للآخرين.

كنتُ أبذل مجهوداً دائماً وواعياً ، لكي أتجنّب صغائر الخطايا ، وكان لديَّ خوفٌ مستمرّ من الوقوع في التجربة .

هذا الاستياء الداخلي يُظهِر لي « ضياعي » الشخصي. أقيم في البيت ولم أغادره ، لكن لم أعش قطّ حياةً حرّة في بيت أبي.

غضبي وحَسدي يُظهران لي عبوديتي . هذا لم يكن شيئاً فريداً بالنسبة لي . يوجد العديد من الأبناء والبنات الكبار الذين ضلّوا وهم لا يزالون بالبيت . وهذا الضياع يتّسم بالحُكم والإدانة ، الغضب والاستياء ، المرارة والغيرة ، وهذا ضار جدّاً بالقلب الإنساني .

في الغالب نُفكِّر في الضياع في إطار الأفعال المرئيّة ، لقد أخطا الابن الأصغر بطريقةٍ يسهُل معرفتها. فضياعه واضح تماماً. لقد أساء استخدام ماله ، ووقته ، وأصدقائه ، وجسده . ما عمله كان خطأ ؛ لم يعرف هذا عائلته وأصدقاؤه فقط ، بل هو نفسه قد عرف هذا ، لقد تمرّد ضدّ الأخلاق ، وسمح لنفسه أن يسير وراء شهواته الشخصيّة ومطامعه. هناك وضوح في سوء تصرّفه . ثُمَّ اكتشف أن هذا السلوك لا يؤدّي إلاَّ إلى البؤس ، فعاد الابن الأصغر إلى رُشده ، واستدار وطلب المغفرة.

لدينا هنا فشل تقليدي للإنسان ، مع حلٍّ مُباشر . وهكذا من السهل أن نفهمه ونتعاطف معه .

ضلال الابن الأكبر من الصعب اكتشافه . لقد فعل كلّ ما هو صحيح . كان مُطيعاً ، ويقوم بكلّ واجباته ، مُنفِّذاً للقانون ، ويعمل بجديّة ، يحترمه الناس ويُعجبون به ويمدحونه ، ويعتبرونه ابناً مثاليّاً ، كان الابن الأكبر لا عيب فيه ظاهريّاً .

لكن عندما كان في مواجهة فرح أبيه بعودة أخيه الأصغر ، انفجرت قوّة مُظلمة فيه وظهرت على السطح . أصبح فجأة غاضباً ومستاءً ومتكبِّراً وغير عطوف وأنانيّاً .

يوجد الكثير من الاستياء بين «المستقيمين» و«الأبرار». ويوجد الكثير من الحُكم والإدانة والأحكام المسبقة في داخلهم. ويوجد الكثير من الغضب المكتوم بين الناس الذين يهتمّون بتجنّب « الخطيئة » .

إن استياء « القدّيس » يُسبّب له ضياعاً يكون من الصعب اكتشافه ، لأن هذا الاستياء يكون مُقترناً بالرغبة في تحقيق الفضائل .

أعرف ، من حياتي الشخصيّة ، كيف حاولتُ باجتهاد أن أكون حَسن السيرة ومقبولاً ومحبوباً ومثالاً للآخرين.

كنتُ أبذل مجهوداً دائماً وواعياً ، لكي أتجنّب صغائر الخطايا ، وكان لديَّ خوفٌ مستمرّ من الوقوع في التجربة .

لكن مع هذا وصلتُ إلى حافّة الخطر ، وهي التزمّت الشديد، وحتّى لمسة من التعصّب ، مما جعل من الصعب عليَّ أن أشعر بالراحة في بيت أبي . أصبحت أقلّ حريّة ، أقلّ تلقائيّة ، أقلّ فرحاً ، ورأى فيَّ الآخرون أنني شخصٌ « ثقيل ».

بدون فرح

عندما سمعت باهتمامٍ الكلمات التي بها جرح الابن الأكبر أباه ، كلمات البرّ الذاتي ، الشفقة على الذات ، والغيرة ، أسمع شكوى عميقة : إنها الشكوى التي تأتي من قلبٍ لم يستقبل أبداً ما كان يجب استقباله. إنها شكوى عبَّر عنها بطرقٍ عديدة ، وهي تشكِّل أساس الاستياء الإنساني . إنها الشكوى التي تصرخ: حاولتُ جاهداً ، عملتُ لوقتٍ طويل ، فعلتُ الكثير ، ولم أحصل على ما يحصل عليه الآخرون بسهولة .

لماذا لم يشكرني الناس ، ولا يدعونني ، ولا يلعبون معي ، ولا يُكرمونني ، بينما يعطون اهتماماً أكبر لهؤلاء الذين يأخذون الحياة بسهولة وبلامبالاة ؟

إنها شكوى قد يُعبَّر عنها أو لا يُعبَّر ، لقد أدركتُ أنني أمثّل نموذجاً للابن الأكبر .

كثيراً ما وجدتُ نفسي أشكو من الرفض ، والمعاملة غير المهذّبة ، والتجاهل . أكتشفُ مراراً وتكراراً تذمّراً في داخلي وأنيناً ورثاءً وتمرّداً وتشبُّثاً حتّى ضدّ إرادتي .

كلّما أغوص في قضايا وأطرح أسئلة حولها تسوء حالتي ، وكلّما أحلّلها أرى سبباً للشكوى ، توجد ظُلمة هائلة تشدّني بقوّة إلى الشكوى الداخليّة .

إدانة الآخرين وإدانة الذات ، والبرّ الذاتي والشعور بالذنب يُدعّمون بعضهم البعض ، ويجعلونني أسير في طريقٍ خاطئ. هذا يوقعني باستمرار في دوامةٍ من رفض الذات . أشعر أكثر بالضياع كلّما تركتُ نفسي تغرق في الشكوى ، أشعر في داخلي أنني شخصٌ يُساء فهمه ، مرفوض ومُهمَل ، ومُحتقرٌ من الناس .

شكواي استدرار للشفقة ، واستدعاء لرضى الناس الذي أرغب فيه كثيراً ، النتيجة تكون غالباً عكس ما حاولت أن أحصل عليه .

إنه لصعبٌ أن تعيش مع شخصٍ دائم الشكوى ، وقليلٌ من الناس هم الذين يعرفون كيف يُجيبون على الشكوى الآتية من شخصٍ يرفض نفسه .

في كثيرٍ من الأحيان تؤدّي شكواي إلى ما أخشى منه كثيراً : مزيد من الرفض .

هكذا يُصبح رفض الابن الأكبر للمشاركة في فرحة أبيه غير مفهوم ، فهو عندما رجع للبيت من الحقل ، سمع موسيقى ورقص ، فعرف أن هناك فرحاً في البيت ، وشعر بالارتياب فوراً .

عندما ينمو فينا رفض الذات ، نفقد تلقائيّتنا إلى أقصى حدّ ، حتّى الفرح حولنا لا يقدر أبداً أن يستدعي الفرح فينا .

تقول القصّة : « **وكانَ الابنُ الأكبرُ في الحَقلِ ، فلمَّا رجَعَ واَقتَرَبَ مِنَ البَيتِ ، سَمِعَ صَوتَ الغِناءِ والرَّقصِ . فدَعا أحَدَ الخَدَمِ وسألَهُ : ما الخَبرُ ؟** » .

هناك خوف من أنّي أُستبعَد مرّة أخرى ، خوفي من شخصٍ ما لا يُخبرني بما كان يحدث ، عندما أشعر أنني مُستبعَدٌ من الأحداث تنبعث الشكوى فوراً : « لماذا لم أكن على علم بذلك ؟».

الخادم المطمئن والمملوء بالإثارة والشوق يُشارك الأخبار السارة ، ويوضِّح : « **رجَعَ أخوكَ سالِمًا ، فذبَحَ أبوكَ العِجْلَ المُسَمَّنَ** » ، ونحن نفرح لأنّه وجده سالماً وآمنا .

لكن صرخة الفرح هذه لم يستطع الابن الأكبر أن يستقبلها ، فبدلاً من الفرح والامتنان ، فقد سبّب فرح الخادم عكس ذلك : « **فغَضِبَ ورَفَضَ أنْ يَدخُلَ** ».

لا يُمكن أن يوجد الفرح مع الاستياء . تُصبح الموسيقى والرقص ، بدلاً من الدعوة للفرح ، سبباً لمزيدٍ من الانسحاب .

لقد عشتُ ذكريات مشابهة . ذات مرّة عندما شعرت أنّي وحيدٌ تماماً ، سألت صديقي أن يخرج معي . فاعتذر أن ليس لديه وقت ، وبعد قليل وجدته في بيت صديقٍ مشتركٍ لنا ، حيث كان يُقام هناك حفل .

رآني صديقي ، وقال لي : « أهلاً ، انضم إلينا ، حسنٌ أن أراك ». لكن غضبي كان عظيماً جدّاً لأنه لم يُخبرني أحدٌ بالحفل ، فلم أستطع البقاء ، فقد انفجرت داخلي كلّ شكواي من أنّي لم أكن مقبولاً ، أو مرغوباً فيه . غادرت الحجرة ، وأغلقت الباب ورائي بعنف . كنتُ عاجزاً تماماً ، وغير قادر على أن أستقبل وأشارك في الفرح الذي كان هناك .

في لحظةٍ . أصبح الفرح في تلك الغرفة مصدراً للاستياء . هذه الخبرة هي خبرة القلب المُستاء. لم يستطع الابن الأكبر الدخول في البيت ومشاركة فرح أبيه . شكواه الداخليّة سبّبت له شللاً وجعلت الظُلمة تغمرهُ .

لمس رامبرانت المعنى العميق لهذا الموقف عندما رسم الابن الأكبر على جانب المنصّة حيث يستقبل الأب ابنه الأصغر بفرح، ونوراً مُشعّاً يُغطّي الأب وابنه الأصغر معاً.

في المَثَل يُمكن للمرء أن يتخيّل الابن الأكبر يقف خارجاً في الظُلمة ، رافضاً الدخول للبيت المُضيء المملوء بضجيج السعادة، حضن الأب المملوء بالنور هو بيت اللّه ، حيث يوجد كلّ فرح وبهجة. والابن الأكبر واقف خارج دائرة الحبّ هذه ، رافضاً الدخول . والنور على وجهه يجعله ظاهراً ، وهو مدعو للنور ، لكنه لا يُمكن أن يكون مُرغماً على الاستجابة .

أحياناً يتساءل الناس عمّا حدث للابن الأكبر : هل أقنعه أبوه ؟ هل دخل البيت أخيراً وشارك في الاحتفال ؟ هل عانق أخاه ورحّب به مثلما فعل أبوه ؟ هل جلس مع أبيه وأخيه على نفس المائدة واستمتع معهم بالوجبة الاحتفاليّة ؟

لم يرسم رامبرانت ، ولم يذكر المَثَل أي شيء عن الموقف النهائي للابن الأكبر . هل أراد الابن الأكبر أن يعترف أنه هو أيضاً ، خاطئ وفي احتياج للمغفرة ؟ هل هو على استعداد أن يعترف بأنه ليس أفضل من أخيه ؟ كما أنني أيضاً لا أعرف كيف قَبِل الابن الأصغر الاحتفال ؟ أو كيف عاش مع أبيه بعد عودته ؟ وأيضاً لا أعرف ما إذا كان الابن الأكبر قد تصالح مع أخيه وأبيه ، ومع نفسه أيضاً. ما أعرفه يقيناً هو الرحمة التي لا حدود لها في قلب الأب .

سؤال مفتوح

وخلافاً للخُرافة ، المَثَل لا يُقدِّم أي نهاية سعيدة . بدلاً من ذلك يتركنا وجهاً لوجه مع واحد من أصعب خيارات الحياة الروحيّة : أن تثق أو لا تثق في محبّة اللّه الغفور للجميع .

واجه يسوع الكتبة والفريسيّين ، ليس فقط بعودة الابن الضال، ولكن أيضاً بنموذج الابن الأكبر المستاء ، وردّ على شكواهم : « **هذا الرجل يُرحِّب بالخطأة ويأكل معهم** » ، ولا بدّ أن هذا الردّ كان صدمةً لهؤلاء الناس المتديّنين المطيعين .

إنهم في نهاية المطاف لا بدّ وأن يواجهوا شكواهم الخاصّة بهم . ويختاروا كيفيّة الاستجابة لمحبّة اللّه للخطأة .

هل هم على استعدادٍ لأن يقبلوهم على المائدة كما فعل يسوع ؟ إن هذا كان وما زال هو التحدّي الحقيقي لهم ولي شخصياً. ولكلّ إنسانٍ يمتلئ قلبه بالاستياء ، ومُعرَّض لتجربة أن يظلّ في حياة الشكوى والتذمّر .

كلّما أفكّر أن الابن الأكبر فيَّ . أُدرك أن هذا هو الضياع الحقيقي . وكم من الصعب الرجوع إلى البيت من هناك .

إن عودة الباحث عن الملّذات إلى البيت تبدو أسهل بكثير من عودة الغاضب المستاء الذي تجذَّر بداخلي . إن غضبي واستيائي شيءٌ لا يُمكن تمييزه بسهولة ، ولا التعامل معه بعقلانيّة ، بل هو أكثر من خبيث ، لأنّه مرتبط بالجانب السفلي من فضائلي .

أليس حسناً أن تكون مُطيعاً ، وتؤدّي الواجب ، وتحترم القانون، وتعمل بجديّة ، وتُضحّي بذاتك في سبيل الآخرين ؟

إن استيائي وشكواي مرتبطان بطريقةٍ غامضة بمواقفي الجديرة بالثناء . عندما أفكّر في هذا الارتباط غالباً ما أشعر باليأس .

في نفس اللّحظة التي أريد أن أتكلَّم أو أتصرَّف انطلاقاً من أقصى سخاءٍ للنفس ، كنت مُحاصَراً بالغضب أو بالاستياء ، وبالمِثْل عندما أريد أن أعيش أكثر نُكران الذات ، أجد نفسي مهووساً بالبحث عن كوني محبوب . فقط عندما أبذل قصارى جهدي لتحقيق مهمّة بشكلٍ جيّد ، أجد نفسي متسائلاً : لماذا لا يُعطي الآخرون ذواتهم كما أفعل أنا ؟

عندما أفكِّر في قدرتي في التغلّب على تجاربي ، هنا فقط أشعر بالحَسد لهؤلاء الذين استسلموا لتجاربهم ، وأنّه في كلّ مرّةٍ أعيش فضيلةً ما ، أعيش معها التذمّر والاستياء . هنا ، تواجهت مع فقري الحقيقي .

أنا عاجزٌ تماماً عن التخلّص من مشاعر الاستياء . إنها متجذِّرة في داخلي ، ولا سبيل إلى التخلّص من هذه المشاعر دون اقتلاع الفضائل أيضاً .

هل يستطيع الابن الأكبر الذي فيَّ أن يرجع للبيت ؟ هل يُمكن أن أعود للبيت كالابن الأصغر الذي كان ضالاً فوجِد ؟

كيف أستطيع أن أرجع عندما أضيع في مشاعر الاستياء ، أو عندما أجد نفسي مُحاصَراً بالغيرة ؟ كيف أستطيع أن أرجع وأنا سجين الطاعة والواجب اللذين عشتهما كعبد ؟

من الواضح أنني لن أستطيع أن أشفي نفسي بنفسي . إن شفاء الابن الأكبر هو أكثر صعوبة من شفاء الابن الأصغر . هنا تواجهتُ مع استحالة الخلاص الذاتي ، أفهم الآن كلمات يسوع لنيقوديموس : « **لا تتعجّب من قولي لك : يجب عليكم أن تولدوا من فوق** » (يو٣: ٧) .

حقّاً ، شيءٌ ما يجب أن يحدُث ، وأنا لا أستطيع بمفردي أن أُحدِثه . لا أستطيع أن أُولد مرّة ثانية من تحت ، أي بقواي الذاتيّة ، بعقلي ، بإرادتي فقط .

لا شكّ في صحّة هذا الكلام ، لقد حاولت جاهدًا في الماضي أن أشفي نفسي من شكواي ، وفشلت ... وفشلت ... وفشلت ، حتّى وصلتُ إلى حافّة الانهيار النفسي ، والإنهاك الجسدي . أستطيع فقط أن أُشفىَ من فوق ، حيث يستطيع اللّه أن يصل إلى أسفل . ما هو مستحيلٌ بالنسبة لي مُمكن لدى اللّه . « **مع اللّه ، كلّ شيءٍ ممكن** ».

عودة الابن الأكبر

« وكانَ الابنُ الأكبرُ في الحَقلِ ، فلمَّا رجَعَ واَقتَرَبَ مِنَ البَيتِ ... فغَضِبَ ورَفَضَ أنْ يَدخُلَ. فخَرَجَ إلَيهِ أبوهُ يَرجو مِنهُ أنْ يَدخُلَ ... فأجابَهُ أبوهُ : يا اَبني ، أنتَ مَعي في كُلِّ حِينٍ ، وكُلُّ ما هوَ لي فهوَ لكَ. ولكِنْ كانَ علَينا أنْ نَفرَحَ ونَمرَحَ ، لأنَّ أخاكَ هذا كانَ مَيِّتًا فَعاشَ ، وكانَ ضالاً فَوُجِدَ » .

(لو ١٥ : ٢٥-٣٢) .

الاهتداء المُمكن

يُريد الأب ليس فقط عودة ابنه الأصغر ، لكن عودة ابنه الأكبر كذلك . الابن الأكبر ، أيضاً ، يحتاج أن يُعثَر عليه ويرجع إلى بيت الفرح . هل سيستجيب لالتماس أبيه أم سيظلّ سجيناً لمرارته ؟

رامبرانت . أيضاً، يترك القرار النهائي للأخ الأكبر ويظلّ السؤال مفتوحاً .

كتبت إحدى الناقدات : « لم يكشف رامبرانت عمّا إذا كان يرى النور . كما أنه لا يدين بوضوح الأخ الأكبر ، ويترك للمُشاهِد تفسير ردّ فعل الأخ الأكبر » .

النهاية المفتوحة للقصّة ، ولوحة رامبرانت يُنادياني للقيام بالكثير من العمل الروحي .

كلّما أنظر للوجه المضيء للابن الأكبر ، وإلى يديه المظلمتين، أشعر ليس فقط بوجوده في الأسْر ، لكن أيضاً بإمكانيّة التحرير. هذه ليست قصّة تفصل بين الأخوين ، ولا تُقدِّم واحداً على أنّه حسن والآخر سيىء . يظلّ الأب هو الخيِّر الوحيد الذي أحبّ أبناءه ، والذي جرى لكي يُقابل كلاً منهما . هو يُريد أن يجلس كلاهما على المائدة ، ويشاركانه فرحه .

سمح الابن الأصغر لنفسه أن يرتمي في حضن أبيه ، بينما يقف الابن الأكبر في الخلف ، ينظر إلى إماءة أبيه الرحيمة ، ولا يستطيع أن يخطو بعيداً عن غضبه ، وأن يترك والده يشفيه كذلك .

محبّة الآب لا تفرض ذاتها على المحبوب ، رغم أنه يُريد أن يشفينا من ظُلمتنا الداخليّة ، نحن لا زلنا أحراراً نصنع اختيارنا لأن نبقى في الظُلمة ، أو لأن نخطو نحو نور محبّة اللّه وغفرانه .

حبّ اللّه غير المحدود ، مستعدّ دائماً أن يُعطي ، ويغفر ، وهو مستقلّ تماماً عن استجاباتنا. لا تعتمد محبّة اللّه على توبتنا أو تغييرنا الداخلي أو الخارجي .

سواء كنتُ الابن الأصغر أو الأكبر ، فرغبة اللّه الوحيدة أن يأتي بي إلى البيت .

لقد أحبّ الأب ابنيه ، وأعطى كلاً منهما الحريّة في أن يكون ما أراده ، لكنه لا يمكن منحهما الحريّة التي لن تُأخذ ولا تُفهم على نحوٍ كافٍ . يبدو أن الأب أدرك ، أبعد من عادات مجتمعه ، احتياج ابنيه أن يكونا ذواتهما ، لكنه يعرف أيضاً احتياجهما إلى حبّه وإلى « **البيت** » . أمّا كيف تكتمل القصّة ، فهذا يتوقّف عليهما .

في الواقع لم يكتمل المَثَل ، والشيء الوحيد الأكيد هو حبّ الأب الذي لا يعتمد على اكتمال القصّة .

وكما قال « شكسبير » في إحدى قصائده : « إن الحبّ لا يكون حبّاً عندما يتغيّر » .

بالنسبة لي شخصيّاً ، إمكانيّة اهتداء الابن الأكبر لها أهميّة حاسمة . يوجد الكثير فيَّ من هذه المجموعة التي انتقَدها يسوع: الفريسيّين ، ومعلميّ الشريعة ، والكَتبة .

لقد درستُ الكُتب ، تعلّمتُ القانون ، وغالباً أقدِّم نفسي كخبير في الشؤون الدينيّة . يُظهِر الناس تقديراً عظيماً لي ، وحتّى يدعونني « المبجَّل » ، ولقد كافأوني بالمديح والمجاملات، بالمال والجوائز ، وبكثيرٍ من الهُتاف . لقد انتقدتُ العديد من أنماط السلوك ، وغالباً ما أصدرتُ أحكاماً على الآخرين . لذا عندما ضرب يسوع مَثَل الابن الضال ، وجب عليَّ أن أُصغي بوعي إلى أن موقفي أقرب إلى الذين قالوا عنه : « **هذا الرجل يُرحِّب بالخطأة ويأكل معهم** ». هل هناك أي فرصة بالنسبة لي أن أعود إلى أبي وأشعر بالترحيب في بيته ؟ أو هل أنا وقعتُ في فخّ البرّ الذاتي ، وبالتالي محكومٌ عليَّ أن أبقى خارج البيت، مُنغمساً في غضبي وغيظي ؟

قال يسوع : « طوبى **للفقراء... طوبى للجياع ... طوبى للباكين ...** » ، ولكن أنا لستُ فقيراً ، أو جائعاً ، أو باكياً . ويُصلّي يسوع : « **أحمدك أيُّها الآب ، يا ربَّ السماء والأرض ، لأنك أظهرت للبسطاء ما أخفيته** (فيما يخصّ الملكوت) **عن الحكماء والفهماء** » (لو١٠:٢١) . إن هذه الأشياء ليست للحكماء والفهماء الذين أنتمي إليهم .

لقد أظهر يسوع التفضيل الجليّ لهؤلاء الذين على هامش المجتمع : الفقراء ، المرضى ، والخطأة ، لكن أنا بالتأكيد لستُ مهمّشاً .

السؤال المؤلم المطروح عليَّ عند قراءة الإنجيل هو : هل حصلت بالفعل على المكافأة ؟

كان يسوع يُحذِّر من هؤلاء الذين : « **يُحبّون الصلاة قائمين في المجامع ومفارِق الطُرق ليُشاهدهم الناس. الحقّ أقول لكم : هؤلاء أخذوا أجرهم** » (مت ٦: ٥) .

مع كلّ كتاباتي وعظاتي عن الصلاة ، ومع كلّ الشُهرة التي أتمتّع بها ، لم تكن هذه الكلمات تعنيني في شيء .

كان الأمر هكذا في الحقيقة . وقصّة الابن الأكبر تضع كلّ هذه الأسئلة الصعبة في نورٍ جديد ، والموقف الواضح جداً هو أن اللّه لا يُحبّ الابن الأصغر أكثر من الابن الأكبر.

في المَثَل يخرج الأب لابنه الأكبر كما فعل مع الأصغر ، يحثّه على الدخول . ويقول له : « **يا اَبني ، أنتَ مَعي في كُلِّ حِينٍ ، وكُلُّ ما هوَ لي فهوَ لكَ** ».

هذه الكلمات يجب أن أوليها اهتماماً ، وأسمح لها أن تخترق أعماقي . يدعوني اللّه : « **ابني** » ، وكلمة « ابني » اليونانيّة التي استخدمها القدّيس لوقا في هذا المَثَل تُعبِّر بطريقة مؤثِّرة في المُخاطَب ، هذه الطريقة المؤثِّرة تُصبح أوضح في الكلمات التي تليها .

لم يُقابل الأب كلمات ابنه بلومٍ ولا حُكمٍ ولا اتّهامٍ مُضاد ، ولا حتّى دافع عن نفسه أو علَّق على سلوك ابنه الأكبر ، بل تحرّك مُباشرةً أبعد من كلّ تقييم لكي يؤكِّد علاقته الحميمة بابنه إذ قال له : « **يا اَبني ، أنتَ مَعي في كُلِّ حِينٍ** » .

إعلان الأب لحبّه المُطلَق ، يُزيل أي إمكانيّة لاعتبار أن الابن الأصغر محبوباً أكثر من الأكبر .

لم يترك الابن الأكبر أبداً البيت ، بل شاركه الأب في كلّ شيء. وجعل نفسه جزءاً من حياته اليوميّة ، لم يحتفظ لنفسه بشيء ، لذلك قال له : « **كُلُّ ما هوَ لي فهوَ لك** » . لا توجد عبارة أوضح للتعبير عن حبّ الأب اللاّنهائي لابنه الأكبر . إنه حبّ غير متحفِّظ مُقدَّم لابنه الأكبر ولكلّ أبنائه .

تَرْكُ المنافسة

الفرح الناتج عن عودة الابن الأصغر لا تعني بأي حال أن نصيب الابن الأكبر من حبّ وتقدير وتفضيل أبيه كان أقلّ من أخيه . لم يُقارِن الأب بين ابنيه ، لقد أحبّ كليهما وعبَّر عن هذا الحبّ طبقاً لمسيرة كلٍّ منهما. يعرفهما بطريقة حميمة ، ويفهم مزاياهما الفريدة من نوعها وأوجه القصور في شخصيّتهما .

ينظر بحبّ إلى تصرّفات ابنه الأصغر ، حتّى عندما لا يكون مُطيعاً ، وبنفس الحبّ يرى طاعة ابنه الأكبر ، حتّى عندما لا تكون مُفعمة بحيويّة الحبّ . ويستجيب الأب للإثنين طبقاً لفرادة كلٍّ منهما .

عودة الابن الأصغر جعلته مدعوّاً لاحتفالٍ مُفرِح ، وعودة الابن الأكبر جعلت الأب يوسِّع الدعوة للمشاركة الكاملة في هذا الفرح. لهذا قال يسوع : « **في بيت أبي منازل كثيرة** » . أي لكلّ ابن للّه مكانه ومكانته الفريدة .

يجب عليَّ أن أترك جميع المقارنات وكلّ تنافس ، وأحيا حياة التسليم لحبّ الآب . هذا يتطلّب قفزة لا تتمّ إلاَّ بالإيمان ، لأن خبرتي قليلة في الحبّ البعيد عن المُقارنة ، ولا أعرف قوّة شفاء هذا الحبّ .

طالما بقيت خارجاً في الظُلمة ، أستطيع فقط أن أبقى في التذمّر والشكوى الناتجة عن مقارناتي . خارج النور ، يبدو لي أن أخي الصغير محبوبٌ من أبي أكثر منّي ؛ في الواقع ، خارج النور ، لا أستطيع حتّى أن أراه أخاً لي .

يحثّني اللّه على العودة إلى البيت للدخول في نوره ، وأن اكتشف هناك أن كلّ الناس محبوبون حبّاً فريداً كاملاً . في نور اللّه فقط أستطيع أن أرى جاري أخاً لي وابناً للّه مثلي تماماً ، لكن خارج نور اللّه ، يُصبح الإخوة والأخوات ، الأزواج والزوجات ، والأصدقاء منافسين وحتّى أعداء ؛ وتسود الغيرة والشكوك والتذمّر .

ليس غريباً أن الابن الأكبر في غضبه يتذمّر على أبيه :

« **فقالَ لأبيهِ : خَدَمْتُكَ كُلَ هذهِ السِّنينَ وما عَصَيتُ لكَ أمرًا، فما أعطَيتَني جَدْيًا واحدًا لأفرَحَ بِهِ معَ أصحابي. ولكنْ لَمَّا رجَعَ اَبنُكَ هذا، بَعدَما أكَلَ مالَكَ معَ البَغايا، ذَبَحتَ العِجلَ المُسَمَّنَ !**».

هذه الكلمات تُظهِر لنا مقدار المرارة التي شعر بها الأخ الأكبر . لقد أحسّ بالجرح بسبب فرح أبيه ، ومنعه غضبه من قبول عودة أخيه واعتبره وغداً .

مع قوله : « **اَبنُكَ هذا** » ، يُبعِد نفسه عن أخيه وكذلك عن أبيه. اعتبرهما غرباء عنه ، لقد فقد الإحساس بحقيقة الارتباط بهما ، ولم يعتبر أن له أخاً ولا أباً . نظر إلى أخيه كخاطئ بازدراءٍ وغُربة ؛ ولأبيه كمَالك عبيد ، بخوف . هنا أرى كم يكون ضياع الابن الأكبر ، لقد أصبح غريباً في بيته . ضاعت الشَركة الحقيقيّة ، وكلّ علاقة يلفّها الظلام .

إن الاختيارات أمام الشخص الخارج عن النور هي أن يكون خائفاً أو أن يُظهِر احتقاراً ، وأن يتألّم من الطاعة ، أو أن يفرض سُلطانه بالقوّة ، وأن يكون ظالماً ، أو لديه إحساس بأنّه ضحيّة ، ولا يستطيع الاعتراف بخطاياه ، ولا يستقبل المغفرة ، ولا يستطيع أن يُبادل حبّاً بحبّ .

الشركة الحقيقيّة تُصبح مستحيلة . أعرف الألم الناتج عن هذا المأزق . الذي فيه فقَد كلّ شيء تلقائيّتهُ ، أصبح كلّ شيء مشكوكاً فيه . حتّى الذات التي تمتليء بالتخمين .

الإيماءة الصغيرة لا بّد وأن تُقيَّم ، كلّ كلمة وكلّ حركة لا بدّ أن تُحلَّل . هذا هو المرض الناتج عن الظُلمة .

هل يوجد مَخرج ؟

أنا لا أعتقد ، على الأقلّ في رأيي . كلّما أُحاول أن أخرج من الظُلمة ، أُصبح أكثر ظُلمة ، أحتاج إلى النور ليقهر ظُلمتي ، وهذا لا أستطيع أن أجلبهُ بنفسي .

لا أستطيع أن أغفر لنفسي ، ولا أقدر أن أشعر بالحبّ ، ولا أستطيع أن أُغادر أرض غضبي ، ولا أن أعود بنفسي إلى البيت، ولا أقدر أن أُقيم وحدي الشَرِكة التي أرغب فيها وانتظرها ، نعم أُصلّي من أجلها ، لكن حرّيّتي الحقيقيّة لا أستطيع أن أحصل عليها بنفسي ، بل يلزَم أن تُعطىَ لي . أشعر بالضياع ، يجب أن أُدعى إلى البيت من قِبَل الراعي الذي يخرج من أجلي .

قصّة الابن الضال هي قصّة اللّه الذي خرج للبحث عنّي وهو لن يرتاح حتّى يجدني ، هو يحثّ ويتوسَّل ، يعرض عليَّ أن أتراجع عن التشبُث بقوىَ الموت ، وأتركه يحضنني بذراعيه اللّتين سوف تحملاني إلى المكان حيث أجد الحياة التي أرغب فيها بشدّة .

في الآونة الأخيرة عشتُ في جسدي بشكلٍ ملموس العودة للابن الأكبر . تعرّضتُ لحادث سيارة ، وبسرعة وجدتُ نفسي في المستشفى قريباً من الموت .

لمعت في ذهني فجأة فكرةٌ أنارت بصيرتي ، وهي أنني لن أكون حرّاً أن أموت طالما كنتُ متعلّقاً بالشكوى من أني لستُ محبوباً بالكفاية من قِبَل الشخص الذي أنا ابنه ، وأدركتُ أني لم أنضج بعد . شعرتُ بقوّة الدعوة لأن أتخلّى عن شكوى مُراهقتي وأمتنع عن الكذب بأنني أحصل على حبٍّ أقلّ من إخوتي الأصغر . لقد كانت هذه الدعوة مُخيفة ، لكنها مُحرِّرة جدّاً. عندما تقدَّم والدي في العمر ، جاء لزيارتي من مسافةٍ بعيدة ، عرفتُ أنها اللّحظة المُناسبة لكي أُظهر بنوّتي المعطاة من اللّه .

لأوّل مرّة في حياتي ، أخبرتُ والدي صراحةً بأنني أحبّه ، وكنتُ أشعر بالامتنان لحبّه لي . قلتُ له أشياء عديدة لم أقُلها أبداً من قبل ، وكنتُ مندهشاً من المدّة التي استغرقتها كي أقول هذه الأشياء . كان والدي مُندهشاً وفي حيرةٍ من هذا ، لكن استقبل كلماتي بتفهّمٍ وابتسامة .

كلّما أنظر إلى الوراء في هذا الحدث الروحي أراه كعودةٍ حقيقيّة ، العودة من اعتمادٍ زائف على الأب البشري الذي لا يستطيع أن يُعطيني كلّ ما أحتاج ، إلى الاعتماد الحقيقي على الآب الإلهي الذي يقول : « **أنتَ مَعي في كُلّ حِينٍ ، وكُلُّ ما هوَ لي فهوَ لكَ** » ، العودة أيضاً من الشكوى ، والمقارنة ، والاستياء الداخلي إلى الذات الحقيقيّة التي تكون حرّة أن تُعطي وتستقبل الحبّ . ورغم كلّ النكسات التي يُمكن أن تستمرّ ، ستأتي بي هذه العودة لأن أعيش الحرّيّة .

العودة إلى « **الآب الذي منه تَستمدّ كلّ أبوّة اسمها** » تُتيح لي الفرصة لأن أترك والدي بحبّه المحدود لأنه كائنٌ محدود ، وأعود إلى أبي الإلهي بحبّه غير المحدود وغير المشروط ، وهكذا يتلاشى كلّ استياءٍ وغضب ، وأتحرّر وأحبّ بعيداً عن الحاجة لإرضاء الآخرين أو البحث عن قبولهم لي .

الابن الأكبر الحقيقي

كيف سيكون الابن الأكبر عندما يتحرّر من شكواه ، يتحرّر من غضبه واستيائه وغيرته ؟

المَثَل لا يُخبرنا شيئاً عن ردّ الابن الأكبر ، إننا نُتْرَك مع اختيار الإصغاء للآب أو البقاء مسجونين في رفضنا الذاتي .

لقد أصبح واضحاً بالنسبة لي أن يسوع ، الذي ضرب المَثَل ، أتى ليُظهِر حبّ الآب ويُحرّرني من عبوديّة استيائي .

كلّ ما قاله يسوع عن نفسه يكشف عن كونه الابن الحبيب ، الذي يعيش في شركة كاملة مع الآب . لا توجد مسافة ، أو خوف ، أو شكّ بين يسوع والآب .

كلمات الأب في المَثَل : « **أنتَ مَعي في كُلِّ حِينٍ ، وكُلُّ ما هوَ لي فهوَ لكَ** » تُعبِّر عن العلاقة الحقيقية للّه الآب مع يسوع ابنه.

يؤكّد يسوع باستمرار أن « **كلّ المجد الذي للآب هو للابن أيضاً** » (يو ١ : ١٤) ، « **وكلّ ما يعمله الآب يعمله الابن أيضاً** » (أنظر يو ١٠ : ٣٧ -٣٨) .

لا يوجد انفصال بين الآب والابن : « **أنا والآب واحد** » (يو ١٧: ٢٢) . لا انقسام في العمل : « **الآب يُحبّ الابن ويهب له كلّ شيء** » (يو ٣: ٣٥) . لا توجد مُنافسة : « **لقد عرّفتهم كلّ شيء تعلّمته من أبي** » (أنظر يو ١٥: ١٥) . لا يوجد حَسد : « **الابن لا يعمل من نفسه شيء ، هو يقدر أن يفعل فقط ما يرى الآب يفعلهُ** » (أنظر يو ١٥: ١٩) .

هناك وحدة كاملة بين الآب والابن . هذه الوحدة تنتمي إلى مركز رسالة يسوع : « **صدّقوني إذا قُلت : أنا في الآب والآب فيَّ ، أو صدّقوني من أجل أعمالي** » (يو ١٤: ١١).

أن تؤمن بيسوع يعني أن تؤمن أنه المُرسَل من الآب ، فيه وبه ملء حبّ الآب الذي أعلنه . وهذا ما عبَّر عنه يسوع بشكلٍ واضح في مَثَل الكرّامين القتلة .

صاحب الكَرم ، بعد أن أرسل عبثاً خدَّاماً عديدين ليحصُل على حصّته من المحصول ، قرّر أن يُرسِل « **ابنهُ الحبيب** » . أدرك الكرّامون أنه الوريث ، فقتلوه لكي يفوزوا بالميراث لهم .

وهذه هي صورة الابن الحقيقي الذي أطاع أباه ، ليس مثل العبد، بل كمحبوبٍ ، وتمّم إرادة الآب في وحدةٍ تامّة معهُ .

وبالتالي يسوع هو الابن الأكبر للآب أرسله ليُعلن عن حبّه الذي لا ينقطع لكلّ أبنائه .

يسوع هو الطريق للّه جاعلاً المستحيلُ ممكناً ، يسمح للنور أن يقهر الظُلمة .

الاستياء والشكوى ، كما يبدو ، لا وجود لهما في وجهه الذي فيه ملء نور البنوّة ساطعاً .

كلّما أتطلّع إلى الابن الأكبر في لوحة رامبرانت ، أُدرك أن النور البارد في وجهه يُمكن أن يُصبح عميقاً ودافئاً ، ومُغيّراً إيّاه كليّةً ، ويجعلهُ بالحقيقة « **الابن المحبوب الذي فيه مسرّة اللّه** » (أنظر يو٥: ٢٤) .

الجزء الثالث

الأب

« فقامَ ورجَعَ إلى أبيه. فَرآهُ أبوهُ قادمًا مِنْ بَعيدٍ، فأشفَقَ علَيهِ وأسرَعَ إلَيهِ يُعانِقُهُ ويُقَبِّلُهُ. فقالَ لَهُ الابنُ : يا أبي ، أخطَأْتُ إلى السَّماءِ وإلَيكَ ، ولا أستَحِقُّ بَعدُ أنْ أُدعى لكَ ابنًا. فقالَ الأبُ لخَدَمِهِ : أسرِعوا ! هاتُوا أفخَرَ ثوبٍ وألْبِسوهُ ، وضَعُوا خاتَمًا في إصبَعِهِ وحِذاءً في رِجلَيهِ. وقَدِّموا العِجلَ المُسمَّنَ واذبَحوهُ ، فنأْكُلَ ونَفرَحَ ، لأنَّ ابني هذا كانَ مَيْتًا فعاشَ، وكانَ ضالاًّ فَوُجِدَ. فأخذوا يَفرَحونَ.

... فخَرَجَ إلَيهِ أبوهُ يَرجو منهُ أنْ يَدخُلَ ... فأجابَهُ أبوهُ : يا ابني ، أنتَ مَعي في كُلِّ حِينٍ ، وكُلُّ ما هوَ لي فهوَ لكَ. ولكِنْ كانَ علَينا أنْ نَفرَحَ ونَمرَحَ ، لأنَّ أخاكَ هذا كانَ مَيِّتًا فَعاشَ ، وكانَ ضالاًّ فَوُجِدَ » .

(لو ١٥ : ٢٠-٣٢) .

رامبرانت والأب

بينما كُنت أجلس أمام اللّوحة في الأرميتاج مُحاولاً استيعاب ما أراه ، مرّت بي مجموعاتٌ كثيرة من السائحين .

ورغم أنهم كانوا يُمضون أقلّ من دقيقة مع اللّوحة ، إلاَّ أن مُعظم المُرشدين السياحيّين وصفوها بأنها لوحة الأب الرحيم ، وأشاروا إلى أنها كانت اللّوحة الأخيرة لرامبرانت ، وهي من أكثر اللّوحات التي جاءت بعد فترةٍ من المُعاناة .

حقّاً، إنها التعبير الإنساني عن الرحمة الإلهيّة ، وبدلاً من تسميتها عودة الابن الضال ، يُمكن أن تُسمّى بسهولة « ترحيب الأب الحنون ». حيث يكون التركيز أقلّ على الابن وأكثر على الأب ، فيكون المَثَل حقيقةً « مَثَل محبّة الآب » .

بالنظر إلى الطريقة التي رسم بها رامبرانت الأب ، يتّضح ليَّ كلّ هذا العُمق لمعنى الحنان والرحمة والمغفرة . نادراً ما عُبِّر في الماضي عن حبّ اللّه الرحيم الرائع بطريقةٍ مؤثّرة كهذه .

كلّ تفاصيل صورة الأب : تعبير وجهه ، وضعه الجسدي ، ألوان ثيابه ، وفوق كلّ هذا ، حركة يديه تتحدّث عن الحبّ الإلهي للبشريّة الموجود منذ البدء وإلى الأبد .

كلّ الأشياء تأتي معاً هنا : قصّة رامبرانت ، قصّة البشريّة ، وقصّة اللّه . الزمن والأبديّة يتداخلان ، الخاطئ والغافر يتعانقان، الإنسانيّة والألوهيّة يُصبحان واحد .

إنّني أرى رجُلاً طاعناً في السنّ ، نصف أعمى مع شارب ولحية ، مُرتدياً ثوباً مُطرَّزاً ومعطفاً أحمر غامق ، يمدُّ يديه بثباتٍ على كتفي ابنهِ العائد. هذا المنظر مميّز جداً وواقعي .

أرى أيضاً الرحمة الإلهيّة ، الحبّ غير المشروط ، المغفرة منبثقة من الآب خالق الكون .

هنا، الإنسانيّة والألوهيّة ، الضعف والقوّة ، قِدَم الأيّام والشباب الأبدي مُعبَّراً عنهم تماماً .

هنا عبقريّة رامبرانت تُجسِّد الحقيقة الروحيّة كاملة.

كما كتب أحد المتخصّصين : « إن الروحانيّة عند رامبرانت تستمدّ أقوى وأروع تجلّياتها من الجسد » . إنه ذو معنى خاصّ أن يختار رامبرانت رجلاً أعمى تقريباً وطاعناً في السنّ لكي يُعبِّر عن حبّ اللّه .

بالتأكيد المَثَل الذي أخبره يسوع وطريقة تفسير المَثَل على مرّ العصور تُقدِّم الأساس لتصوير حبّ اللّه الرحيم .

ولكن يجب ألاَّ ننسى أن خبرة رامبرانت الخاصّة هي التي مكّنته من أن يُعطي للمَثَل هذه التعابير المميّزة .

يقول أحد المتخصّصين : « منذ أن كان رامبرانت شابّاً أظهر دائماً اهتماماً خاصّاً بالمسنّين ، لقد سبق ورسمهم ، وأصبح شغوفاً بجمالهم الداخلي » .

بعد محَنِهِ العديدة ، في العمل والبيت ، أظهر إعجاباً خاصّاً بالعميان . كالنور في عمله الباطني ، بدأ يرسم أناساً عمياناً كالرائين الحقيقيّين . أنهُ منجذبٌ إلى طوبيا وسمعان الشيخ شبه الأعمى ، ورَسَمَهُم مرّاتٍ عديدة .

لقد خيّمت ظلال العُمر المتقدِّم على حياة رامبرانت الشخصيّة ، كما أن نجاحه بدأ يخفت ، وإشراقة حياته الخارجيّة انطفأت ، فأصبح أكثر تلامُساً مع الجمال الرائع للحياة الباطنيّة .

هناك اكتشف النور الآتي من النار الداخليّة التي لا تخمُد أبداً : نار الحبّ .

لم يعد يُحاول في فنّه أن يفهم ، أو يقتحم ، أو ينظِّم المرئي ، ولكنّه نجح في أن يُحوّل المرئي إلى نار الحبّ التي تأتي من قلب فنانٍ فريد . قلب رامبرانت أصبح مثل قلب الآب الفريد .

النور الداخلي الناتج من نار الحبّ ، والذي نما بقوّة من خلال فنّه لسنينٍ عديدة ، أعطاه إحساساً بالألم الذي كان يحرق قلب الأب الذي يستقبل ابنه العائد .

فهمتُ الآن لماذا لم يتبع رامبرانت النصّ الحرفي للمَثَل ، عندما كتب القدّيس لوقا : « **فَرآهُ أبوهُ قادِمًا مِنْ بَعيدٍ ، فأشفَقَ علَيهِ وأسرَعَ إلَيهِ يُعانِقُهُ ويُقَبِّلُهُ** » (لو ١٥: ٢٠) .

رسم رامبرانت الخطوة الكبرى لهذا الحدث ، مبكّراً في حياته ، مع كلّ الحركات الدراميّة التي تحتويها . ولكن وهو يقترب من الموت ، اختار أن يرسم الأب الذي يعرف ابنه ليس بعيون الجسد ، بل بعيون قلبه الداخليّة . يبدو أن اليدين اللّتين تُلامسان ظَهْر الابن العائد هما بمثابة أداة لعيون الأب الداخليّة. الأب الذي هو أعمى تقريباً يرى ما هو أبعد وأوسع . رؤيته رؤية أبديّة ، رؤية تصل إلى كلّ البشر .

إنها تفهم الضياع الذي يشعر به الإنسان في كلّ زمانٍ ومكان، رؤية تتّسم برحمةٍ هائلة لهؤلاء الذين يُعانون من ألم تَرْك البيت ، ويزرفون الدموع الغزيرة بسبب ما اختبروه من كربٍ وضياع .

إنه قلب الأب الذي يحترق بالرغبة العميقة بأن يعود أبناؤه للبيت . آهٍ ! لكم أراد أن يُكلّمهم ويُحذّرهم ويحميهم من المخاطر العديدة التي يواجهونها ، ويُحاول إقناعهم بأنهم يستطيعون أن يجدوا في البيت كلّ شيء يبحثون عنه في أماكن أخرى ، لكنه لم يفعل . إنه لا يستطيع أن يفرض بالقوّة ، أو يُجبِر ، بل يُقدِّم الحرّيّة بأن يُرفَض هذا الحبّ أو يُستجاب له .

إن الحبّ الإلهي بصفةٍ خاصّة هو تماماً مصدر الألم الإلهي. واللّه خالق السماء والأرض اختار أن يكون أوّلاً وأساساً آب .

كأبٍ يُريد أن يكون أبناؤه أحراراً، أحرار أن يُحبّوا . هذه الحرّيّة تشمل إمكانيّة تركهم للبيت ، والذهاب إلى بلدٍ بعيد وفقدان كلّ شيء .

قلبُ الأب يعرف كلّ الآلام التي يسبّبها له هذا الاختيار ، ولكن حبّه يجعله لا يقوى على أن يمنعهم ، كأبٍ يرغب في أن يستمتع بحضوره كلّ مَن يُقيم في البيت ويختبر حبّه .

مَن له أولاد يُكرمونه فقط بقبول الخدمة بينما قلوبهم بعيدة عنهُ ، يُسبّبون له ألماً حقيقيّاً ، هو يعرف « ألسنتهم الخادعة » و« قلوبهم غير المُخلِصة » ، وهو لا يقدر أن يجعلهم يحبّونه بدون أن يفقد أبوّته الحقيقيّة . كأبٍ لديه سُلطة فقط أن يُعلن بنفسه أنها سُلطة الرحمة .

السُلطة تأتي من أن يدَع خطايا أبنائه تطعن قلبه. ليس لديه شهوة ، ولا طمع ، ولا غضب ، ولا غيظ ، ولا غيرة أو انتقام من أبنائه الضائعين . لذلك يكون حزنه عميق جدّاً فقلبه شديد النقاء .

لمسة اليدين تشعُّ نوراً داخليّاً ، فهي تسعى فقط لأن تشفي . هذا هو اللّه الذي أؤمن به : الآب الذي منذ بدء الخليقة ، يمدّ ذراعيه ببركةٍ رحيمة ، لا يفرض نفسه إطلاقاً على أي شخص، ولكنه دائماً في انتظار ، لا تسقط ذراعاه أبداً ولا يخيب أمله ، لكنه دائماً يأمل في عودة أبنائه ، لذلك يتحدّث إليهم بكلمات حبٍّ ويترك ذراعيه المُتعَبَة على أكتافهم . ورغبته الوحيدة أن يُباركهم . في اللّغة اللاّتينيّة ، اسم « بنديكيت » معناه الذي يُبارك ، ويعني حرفيّاً : قول أشياء حسنة .

يُريد الأب أن يقول بصَمْتِهِ أشياء جميلة لأبنائه أكثر مما يقوله بيديه . ليس لديه رغبة في معاقبتهم ، وهم في الحقيقة قد عُوقبوا بتمرّدهم . يُريد الأب ببساطة أن يعرفوا أن الحبّ الذي يبحثون عنه بطرقٍ هدّامة ، سيكون هناك من أجلهم دائماً .

يُريد الأب أن يقول بيديه أكثر من فمه : « **أنت ابني الحبيب، الذي به رضيت** » . فهو الراعي الذي « **يُطعِم خرافه ، ويجمع الحملان بين ذراعيه . ويُقرّبهم إلى قلبه** ».

مركز رسم رامبرانت الحقيقي هو يديّ الأب . يُركّز كلّ الضوء عليهما ، وأيضاً عيون المتفرّجين مُركّزة عليهما . تُصبح فيهما الرحمة متجسّدة ، والمغفرة والمُصالحة والشفاء يأتون معاً، ومن خلالهما .

ليس فقط الابن المُتعَب ، لكن أيضاً الأب المُرهَق يجدان راحتهما .

منذ اللّحظة الأولى التي رأيت فيها لوحة رامبرانت ، شعرتُ بانجذابٍ لتلك اليدين .

لم أفهم تماماً لماذا، ولكن تدريجيّاً مع السنين عرفتُ تلك اليدين اللّتين تمسكانني منذ أن كنتُ جنيناً ، وتستقبلاني عند ميلادي ، وتمسكاني بقُرب صدر أمّي ، أطعمتاني ، وحفظتاني بدفء ، تحمياني في أوقات الخطر وتُعزياني في أوقات الحزن. هذان اليدان هما يديّ اللّه . وهما أيضاً أيدي والديَّ ، ومدرّسيَّ وأصدقائي وأطبائي ، كلّ هؤلاء أعطاني إياهم اللّه ليذكّرني كم هو يُمسكني بطمأنينة .

لقد مات رامبرانت بعد مدّة قصيرة من رسمه اليدين . يديّ رامبرانت رسمت وجوه وأيادي بشريّة عديدة . وفي واحدة منهم، هي آخر رسوماته ، رسم وجه ويديّ اللّه.

ترحيب الأب بالعائدين

« فقامَ ورجَعَ إلى أبيهِ. فَرآهُ أبوهُ قادِمًا مِنْ بَعيدٍ، فأشفَقَ علَيهِ وأسرَعَ إلَيهِ يُعانِقُهُ ويُقَبِّلُهُ ... وكانَ الابنُ الأكبرُ في الحَقلِ ... فغَضِبَ ورَفَضَ أنْ يَدخُلَ. فخَرَجَ إلَيهِ أبوهُ يَرجو مِنهُ أنْ يَدخُلَ ... » .

(لو ١٥ : ٢٠-٣٢) .

أب وأمّ

كثيراً ما سألتُ أصدقاء بأن يعطوني انطباعهم الأوّل عن لوحة الابن الضال لرامبرانت ، فكانوا يُشيرون إلى الرجل الحكيم الذي يُسامح ابنه ، الأب الكريم .

كلّما أطلتُ النظر إلى « الأب » يُصبح أكثر وضوحاً لي أن رامبرانت قدّم شيئاً مختلفاً تماماً عن أن يُصوِّر اللّه في صورة مُسنٌّ حكيم يترأّس العائلة . إن كلّ شيء بدء باليدين ، فهما مختلفتان تماماً ، يد الأب اليسرى تُلامس كتف الابن وهي ذكوريّة وأقوى . الأصابع ممدودة تُغطّي جزءاً كبيراً من كتف الابن الضال . أستطيع رؤية ضغطة معيّنة ، خاصّة بالإبهام . اليد لا تُلامِس فقط ، لكنها تُمسِك أيضاً .

وبالرغم من رقّة اليد اليُسرى للأب في ملامسة ابنه ، إلاَّ أنها لا تخلو من حزم .

كم تختلف اليد اليمنى للأب عن اليُسرى ! هذه اليد اليُمنى لا تمسك أو تقبض ، إنها ناعمة وحانية جداً . أصابعها قريبة بعضها من بعض وهي مرسومة بأناقة . إنها منبسطة بدفءٍ على كتف الابن . إنها تُقدِّم تعزية وراحة ، إنها يد الأمّ .

اقترح بعض الأشخاص أن اليد الذكوريّة اليُسرى تشبه يد رامبرانت ، واليد اليُمنى تشبه يد العروس اليهوديّة المرسومة في نفس الفترة الزمنيّة . وحالما أدركتُ الاختلاف بين يدي الأب ، انفتح أمامي عالمٌ جديدٌ من المعنى .

الأب ليس ببساطة أباً عظيماً ، بل هو أيضاً أمّ تُلامس الابن، يد ذكر وأخرى يد أنثى تمسك وتحنو. هو يؤيّد ويُعزّي . إنه حقّاً اللّه ، فيه ملء الأمومة والأبوّة ، الأنوثة والذكورة ، رقّة وحنو اليد اليُمنى هي صدى كلمات النبي أشعيا: « **أتنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ثمرة بطنها ؟ لكن ولو أنها نسيت فأنا لا أنساك ... ها على كفيَّ رسمتُكِ ...** » (أش ٤٩: ١٥-١٦) .

لي صديقٌ أشار إلى أن اليد الأنثويّة الحانية للأب موازية لقدَم الابن المجروحة العارية ، بينما اليد القويّة الذكوريّة موازية لقدَم الابن السليمة منتعلة « الصندل ».

وهناك أيضاً المعطف الأحمر الكبير الذي له شكل قوس يُشبه سفينة مع لونه الدافيء ، ويُمثِّل مكاناً آمناً للاستقبال . وهذا المعطف ينحني على جسد الابن ويُشبه خيمة تدعو المُسافر المُرهَق لأخذ بعض الراحة . وبالنظر بعُمق للمعطف الأحمر أرى صورةً أخرى أقوى من الخيمة : جناحي الحماية للطائر الأمّ ، وهذا يُذكّرني بكلمات يسوع عن حبّ اللّه الأمومي: « **يا أورشليم يا أورشليم... كم مرّة أردت أن أجمع أبناءك ، مثلما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ، فما أردتم** » (مت٢٣: ٣٧-٣٨) .

في عالم الطيور ، تُعبِّر صورة جناحي الأمّ اليقظة عن الطمأنينة التي يُقدِّمها اللّه لأبنائه ، فهي تُعبِّر عن العناية والحماية ومكان الراحة والشعور بالأمان.

كلّ مرّة أنظر إلى الخيمة ، وكذلك إلى جناحيّ الطائر ، والمعطف في لوحة رامبرانت ، أشعر بأمومة حبّ اللّه ، وقلبي يُغني مع كلمات المزمور :

« **مَن يُقيم في حِمى العلي وفي ظلّ القدير يبيت يقول للربّ حماي وحصني أنت ، إلهي الذي أتكل عليه ... بريش جناحيه يُظلّلك ، وفي كنفه تحتمي** » (مز ٩١: ١-٤) .

عندما أنظر مُجدّداً للرجل المُسنّ المنحني على ابنه العائد لامساً أكتافه بيديه ، أرى ليس الأب فقط الذي « يُعانق ابنه بين ذراعيه » ، ولكن أيضاً أمّ « تُداعب طفلها ، تحيطه بدفء جسدها ، ممُسكةً به بقُرب البطن الذي منه أتى » ، وبالتالي تُصبح عودة الابن الضال عودةً لأحشاء اللّه ، العودة للكيان الأصلي ، وهنا نجد صدى لكلام يسوع لنيقوديموس : « **ما من أحد يُمكنه أن يرى ملكوت اللّه إلاّ إذا وُلد ثانيةً** » (يو٣: ٣) .

ما أراه هنا : اللّه كأمّ ، تستقبل مرّةً ثانية داخل بطنها الشخص الذي كوّنته على صورتها .

كلّ هذا الحبّ الإلهي الأمومي متّسماً بالحزن والرغبة والرجاء والانتظار غير المتناهي . حقّاً إن اللّه في رحمته غير المتناهية ربط نفسه بحياة أبنائه . إنه اختار أن يهب لهم الحرّيّة .

هذا الاختيار يُسبّب له الحزن عندما يتركونه ، والسعادة عندما يعودون ، لكن الفرح لن يكون كاملاً حتّى يعود للبيت كلّ الأبناء ، ويتجمّعون معاً حول المائدة التي أُعدّت لهم . وهذا يشمل الابن الأكبر .

لا أكثر ولا أقلّ

إنه هامّ جدّاً بالنسبة لي أن أفهم المعنى الكامل لما يحدث هنا، بينما الأب يفرح حقيقةً بعودة الابن الأصغر ، إلاَّ أنه لا ينسَ ابنه الأكبر ولا يُهمله .

كان فرحه شديداً حتّى أنه لم يستطع انتظار بداية الاحتفال ، بل عندما عرف بوصول ابنه الأكبر ، ترك الحفل وذهب إليه ليناشدهُ اللّحاق بهم .

لم ينقسم قلب الأب في حبّه لابنيه ، ولم يعقد أي مُقارنة بين الابن الأصغر والابن الأكبر ، بل صمّم على جعل فرحته تضمّ الإثنين معاً . وهذا ليس من السهل لي أن أدركهُ .

في العالم نُقارن بين الناس باستمرار ، في المقام أو القبول أو الجاذبيّة أو النجاح ، إنه ليس سهلاً أن نؤمن إيماناً حقيقيّاً بحبٍّ لا يُقارِن بين الناس .

وعندما أرى ميداليات ، ومكافآت تُسلّم لأناسٍ متميّزين لا أستطيع تجنّب سؤال نفسي لماذا لم يحدث هذا لي ؟

كثيرٌ من الحزن والسعادة في حياتي نابع مباشرةً من مقارناتي ؛ ومعظم ، إن لم يكن كلّ ، هذه المقارنات غير مفيدة ومتعِبة ومضيّعة للوقت والطاقة .

إلهُنا، الذي هو أبٌ وأمٌ لنا ، لا يُقارِن أبداً . وهذا أعرفه بطريقةٍ نظريّة ، لكنه لا يزال صعب جدّاً أن أقبله تماماً بكلّ كياني . لا أستطيع أن أقبل في أعماقي كيف أن كلّ أبناء اللّه مفضَّلين لديه .

إن حبّ اللّه الخالي تماماً من المقارنة يرى في كلّ الرجال والنساء فرادتهم .

لقد قارن الأخ الأكبر نفسه بأخيه الأصغر فملأت الغيرة قلبه ، لكن الأب يُحبّهما كثيراً جداً ، حتّى أنه لم يخطر على باله تأجيل الحفل لكي يمنع الابن الأكبر من شعوره بالرفض .

إني مقتنعٌ تماماً بأن العديد من مشاكلي العاطفيّة سوف تذوب كالجليد في الشمس إذا سَمَحتُ لحقيقة حبّ اللّه الأمومي الخالي من المقارنة أن تخترق قلبي . كم هذا صعبٌ .

عندما أفكّر في مَثَل العمّال في الكَرم ، حيث أعطى صاحب الكَرم نفس الأجر للعمّال الذين اشتغلوا ساعةً واحدة والذين اشتغلوا يوماً كاملاً ، يثور داخلي شعورٌ بالانزعاج . لماذا لم يدفع صاحب الكَرم أجراً أكبر للذين اشتغلوا ساعاتٍ أطول ؟ لماذا فعل ما فعله وخلَق مرارةً وغيرةً غير ضروريّة ؟

الآن أُدرك أن هذه الأسئلة ، نابعة من عقليّةٍ تخلط بين اقتصاد الزمنيّات والأمور الإلهيّة الفريدة .

قلب اللّه

لا شكّ أنه ، في المَثَل أو اللّوحة ، أحبّ الأب ابنيه ، وكان يأمل أن يراهما معاً كأخوَيْن حول نفس المائدة ؛ كان يودُّ أن يختبرا هذا الشعور ، شعور الانتماء إلى نفس البيت ونفس الأب .

لم اختر أنا اللّه ، لكن اللّه هو الذي اختارني أوّلاً . هذا هو السرّ العظيم لإيماننا . وهذا هو حالنا جميعاً .

« **... وفي ظلّ يَدِهِ خبّأني ... ها على كفّي رسمتُكِ** » .

(أش ٤٩ : ٢، ١٦) .

« **... فأنت صنعتني في الرحمِ، وأبدعتني هناك في الخفاء**».

(مز ١٣٩ : ١٥) .

يُحبّنا اللّه قبل أن يُحبّنا أي شخصٍ ، حبّاً غير محدود وغير مشروط .

كافحتُ كلّ حياتي لكي أجد اللّه وأعرفه وأحبّه ، وحاولت جاهداً أن أتبع إرشادات الحياة الروحيّة : أصلّي دائماً ، أعمل لأجل الآخرين ، أقرأ الكتاب المقدّس ، متجنّباً الكثير من التجارب التي تشتّت نفسي . فشلتُ عدّة مرّات لكن دائماً أُحاول ثانيةً ، حتّى عندما كنتُ قريباً من اليأس .

الآن أتساءل عمّا إذا كنتُ قد أدركتُ بالكفاية أنه أثناء هذا الوقت الطويل يُحاول اللّه أن يجدني ، أن يعرفني ، ويُحبّني. السؤال لا يكون : كيف أجد اللّه ؟ بل هو : كيف أدع اللّه يجدني ؟

السؤال لا يكون : كيف أعرف اللّه ؟ بل هو : كيف أدع نفسي أُعرف بواسطة اللّه ؟

وأخيراً. السؤال لا يكون : كيف أُحبّ اللّه ؟ بل هو : كيف أدع نفسي أُحَبّ من اللّه ؟ اللّه يبحث عنّي ، مُحاولاً أن يجدني ، ويشتاق أن يأتي بي إلى البيت .

في الأمثلة التي ضربها يسوع في الردّ على سؤال : لماذا يأكل مع الخطأة ؟ نجده يُركّز على مبادرة اللّه ، اللّه يُشبه الراعي الذي يبحث عن خروفه الضائع ، ويُشبه المرأة التي تضيء المصباح ، وتكنس البيت ، وتبحث في كلّ مكان عن الدرهم المفقود حتّى تجدهُ ، ويُشبه الأب الذي ينظر وينتظر أبناءه ، يركض مُسرعاً ليقابلهم ، يُعانقهم ، يناشدهم ويحثّهم ملتمساً منهم أن يرجعوا للبيت .

ربّما بدا هذا غريباً ، لكن اللّه يُريد أن يجدني على قدر ما أنا أحتاجه .

اللّه ليس هو الأب الذي يقيم في البيت ، لا يتحرّك ، ويتوقّع من أولاده أن يرجعوا إليه ، معتذرين عن انحراف سلوكهم ، ملتمسين الغفران ، وواعدين بأن يكونوا أفضل .

على العكس ، هو يترك البيت ، متجاهلاً كرامته بأن يجري نحوهم ، لا يُبالي باعتذارهم ووعدهم بالتغيير ، ويأتي بهم إلى الوليمة التي أُعدّت لهم .

الآن أرى كيف أن مسيرتي الروحيّة تتغيّر جذريّاً عندما لم أعد أفكّر في اللّه كمختبئ يصعب عليَّ أن أجده ، لكن بالعكس هو الذي يبحثُ عنّي بينما أنا الذي يختبئ .

عندما أنظر بعين اللّه إلى نفسي الضائعة وأكتشف فرحه بعودتي للبيت ، حينئذٍ تُصبح حياتي أقلّ كَرباً وأكثر ثقةً . أليس من الأفضل أن أزيد من فرح اللّه بأن أدعه يجدني ويحملني للبيت ويحتفل بعودتي مع الملائكة ؟

الحبّ الأوّل والأبدي

لسنواتٍ عديدة اعتبرتُ تقدير الذات المنخفض هو نوعٌ من الفضيلة . كنتُ غالباً ما أحذَر من الكبرياء والغرور ، وتوصّلت في التفكير أن هذا شيءٌ جيّد بأن أنتقص من قدر نفسي .

لكني الآن أُدرك أن الخطيئة الحقيقيّة هي أن أُنكر حبّ اللّه لي . أن أتجاهل خيري الأصلي ، وهكذا أفقد المعرفة الحقيقيّة لذاتي . والشروع في البحث الهدّام عن هذه المعرفة لدى أناسٍ غير صالحين . وفي أماكن خطأ ، حتّى أجد ما يُمكن أن أجده في بيت أبي .

لا أعتقد أني بمفردي في هذا الصراع حيث أتّكل على حبّ اللّه الأوّل وخيري الأصيل . لكن يوجد الكثير من الرجال والنساء الذين رغم مواهبهم الواضحة ونجاحهم إلاَّ أنهم يشكّون كثيراً في صلاحهم . وفي مرّاتٍ ليست بالقليلة أسمع : « لو أن الناس عرفوا ما يجول في أعماقي ، فإنّهم سيوقفون مديحهم وتقديرهم لي » .

إنني أتذكّر بوضوح كلام قاله لي شابٌ كان يتمتّع بحبّ وإعجاب كلّ شخصٍ عرفه ، حيث أخبرني كيف أن أي نقد عابر أو تعليق من أحد أصدقائه يُلقي به داخل هاوية من الكآبة ، حيث تنهمر الدموع من عينيه ، ويرتعش جسده من شدّة الانفعال . عندما سمعتُ حديثه أدركتُ أي حياةٍ تعيسة كان يعيش ، رغم أن كلّ مَن حوله كان يحسده على مواهبه .

لسنينٍ طويلة كانت تدور في أعماقه أسئلةٌ مثل : هل هناك شخصٌ يُحبُّني حبّاً حقيقيّاً ؟ هل هناك شخصٌ يهتمُّ بي اهتماماً حقيقيّاً ؟

يوضِّح هذا الكلام الطريقة التي يعيش بها العديد من الناس حياتهم ، لديهم شكّ في أنهم محبوبون كما هُم . العديد منهم لديه قصص مروِّعة تُقدِّم أسباباً معقولة لتدنّي تقدير الذات : قصص عن الآباء والأمّهات الذين لم يمنحوهم ما يحتاجونه ، ومُعلّمين أساءوا معاملتهم ، وأصدقاء خدعوهم ، والكنيسة التي تركتهم دون عون في لحظاتٍ حرجة من حياتهم .

مَثَل الابن الضال قصّة تتحدّث عن حبٍّ موجود قبل أي رفض، أنه حبّ اللّه الأوّل والأبدي ، وهو حبٌّ أبوي وأمومي ، وهو ينبوع كلّ حبّ بشري حقيقي .

كان لحياة يسوع وتبشيره هدفٌ واحد فقط : الكَشف عن هذا الحبّ الأبوي الأمومي غير المحدود والذي لا ينضب ، ويُنادينا لكي نترك هذا الحبّ يقود كلّ حياتنا اليوميّة .

في رسمه للأب ، قدّم لي رامبرانت لمحةً من هذا الحبّ . إنه الحبّ الذي يرحّبُ دائماً ، ويحتفل بعودة الضال .

دعوة الأب للاحتفال

« فقالَ الأبُ لخَدَمِهِ : أسرِعوا ! هاتُوا أفخَرَ ثوبٍ وأَلْبِسوهُ ، وضَعُوا خاتَمًا في إصبَعِهِ وحِذاءً في رِجلَيهِ. وقَدِّموا العِجلَ المُسمَّنَ واَذبَحوهُ ، فنَأْكُلَ ونَفرَحَ ، لأنَّ اَبني هذا كانَ مَيْتًا فعاشَ، وكانَ ضالاً فَوُجِدَ. فأخذوا يَفرَحونَ ».

(لو ١٥ : ٢٢-٢٤) .

إعطاء أفضل ما يُمكن

من الواضح أن الابن الأصغر لم يرجع لبيت الأسرة ببساطة. لقد وصف لوقا الأب كرجلٍ غنيّ له ملكيّة واسعة النطاق والعديد من الخَدَم .

لمطابقة الوصف رَسَم رامبرانت الأب مُرتدياً ملابس فخمة ، وكذلك الرجُلين اللّذين يراقبانه . هناك تناقض حاد بين المنظر الرائع للأب ونظرة المحيطين به من ناحية ، والمعاناة الطويلة الظاهرة حتّى في عينيه شبه العمياء ووجهه الحزين وقامته المُنحنية من ناحية أخرى .

اللّه الذي يتألّم بسبب حبّه اللامتناهي لأبنائه ، وهو الغني بالخير والرحمة ، هو نفسه يرغب في أن يكشف لأبنائه غنى مجده .

لم يعطِ الأب ابنه حتّى الفرصة للاعتذار . إنه يسبق توسّل ابنه بالمغفرة الفوريّة ، ووضع جانباً نداء الابن بسبب شدّة فرحته بعودة ابنه . ليس هذا فقط ، بل غفر له دون أي سؤال ورحّب فَرِحاً بعودة ابنه المفقود ، وهو لا يستطيع الانتظار ، بل يُعطيه حياةً جديدة ، حياة وافرة .

يرغب اللّه بقوّة في أن يُعطي الحياة لابنه العائد ، في حين أن الابن على استعداد للتعامل كخادم أجير ، يدعو الأب خَدمه إلى إلباسه رداء محفوظ لضيفٍ مميّز ؛ ورغم أن الابن لم يعد يشعر باستحقاق أن يُدعى ابن ، يُلبسه الأب خاتماً في أصبعه وحذاءً في قدميه ، ليُكرمهُ كابنٍ محبوب ويُعيده وريثاً له .

أتذكّر بوضوح الملابس التي ارتديتها أثناء الصيف بعد حفل التخرّج من المدرسة الثانويّة : بنطلوني الأبيض ، وحزامي العريض . وقميصي الملوّن . وحذائي اللاّمع ، كلّ هذا كان مُعبِّراً عن شعوري الجيّد بنفسي . كان والداي سعيدين بشراء هذه الملابس الجديدة لي . ويُظهرا عظيم الفخر بابنهما . شعرتُ بالامتنان لكوني ابنهما ، وأذكر خاصّةً شعوري بارتداء حذاء جديد .

الآن أفهم بطريقةٍ أفضل الأهميّة الرمزيّة للحذاء الجديد ، وتعبير حافي القدمين يُشير إلى الفقر وفي الغالب إلى العبوديّة. الحذاء هو للأغنياء والأقوياء ، فهو يُقدِّم حماية ضدّ الحيّات ، ويُعطي الشعور بالأمان والقوّة .

بالنسبة لكثيرٍ من الفقراء ، الحصول على حذاء هو معيار الترقّي . وهناك تعبير روحي من أصل أفريقي أمريكي يُعبِّر بجمالٍ عن هذه الحقيقة : «كلّ أبناء اللّه حصلوا على أحذية» .

ألبَسَ الأب ابنه علامات الحّريّة ، حرّيّة أبناء اللّه ، وهو لا يُريد لأي من ابنيه أن يكون خادماً أو أجيراً أو عبداً ، أرادهما أن يرتديا رداء الكرامة ، وخاتم الميراث ، وأحذية النفوذ .

إن ما جرى يُشبه ما نقرأه في سِفر زكريّا :

« **... وكان يشوع لابساً ثياباً قذرة وواقفاً أمام الملاك . فقال الملاك للواقفين أمامه : إنزعوا عنه الثياب القذرة . ثُمَّ قال ليشوع : أنظر نقلتُ إثمك عنك ، وسألبسك ثياباً ناصعة البياض. وقال لهم : إجعلوا العمامة الطاهرة على رأسه ، وألبسوه الثياب الناصعة البياض ... فوعد ملاك الربّ يشوع قائلاً : هذا ما قال الربّ القدير : إن سرت في طُرقي وعملت بأوامري ...** » (زك ٣ : ١-١٠) .

كلّما قرأتُ قصّة الابن الضال مع هذا النصّ لسِفر زكريّا أفكّر في الأب الذي يأمر خَدمه ليحضروا رداءً لابنه ، وخاتماً ، وحذاءً مما يكشف عن التوق الإلهي لافتتاح الملكوت الجديد الذي أُعدَّ من بدء الزمان .

لا يوجد شكّ في أن الأب يُريد إقامة وليمة فاخرة ، لذلك ذبح العجل المُسمَّن المُعدّ لمناسبة خاصّة : «**نَأْكُلَ ونَفرَحَ ، لأنَّ ابني هذا كانَ مَيْتًا فعاشَ، وكانَ ضالاً فَوُجِدَ. فأخذوا يَفرَحونَ**».

هناك طعامٌ وفير ، وموسيقى ورقص ، وضوضاء يُمكن سماعها عن بُعد خارج البيت تعبيراً عن الاحتفال البهيج .

دعوة للفرح

أعترف أنني لم أتعوّد على صورة اللّه الذي يُقيم حفلاً كبيراً، ويبدو لي أن هذا يُناقض الوقار والجديّة اللّذين نَصف بهما اللّه .

لكن عندما أفكّر في الطُرق التي وصف بها يسوع ملكوت اللّه، أُدرك أن وليمة الفرح في كثيرٍ من الأحيان هي المركز . « **أقول لكم : كثيرون من الناس سيجيئون من المشرق والمغرب ويجلسون إلى المائدة مع إبراهيم وإسحق ويعقوب في ملكوت السموات** » (مت ٨: ١١) . لقد قارن ملكوت السموات بوليمة عُرسٍ أقامها المَلك لابنه . « **... فأرسل خَدمه يستدعي المدعوّين إلى الوليمة ، فرفضوا أن يجيئوا . فأرسل خَدماً آخرين ليقولوا للمدعوّين : أعددتُ وليمتي ، وذبحتُ أبقاري وعجولي المسمّنة وهيأتُ كلّ شيء ، فتعالوا إلى العُرس ! لكنهم تهاونوا ...** » (مت ٢٢: ٢-١٠) . كانوا مشغولين جداً بشؤونهم الخاصّة .

كما في مَثَل الابن الضال ، يُعبِّر يسوع هنا عن الرغبة العميقة التي للآب لكي يُقيم لأبنائه وليمةً ، وشوقه لحضور المدعوّين الذين رفضوا أن يأتوا. إن الدعوة إلى الطعام هي دعوة للعلاقة الحميميّة مع اللّه ، وهذا واضح خاصّة في العشاء الأخير ، قبل وقتٍ قصير من صَلب يسوع . هناك قال لتلاميذه :

« **لا أشرب بعد اليوم من عصير الكَرمة هذا ، حتّى يجيء يومٌ فيه أشربه معكم جديداً في ملكوت أبي** » (مت ٢٦ : ٢٩) .

وفي سِفر الرؤيا يوصَف نصر اللّه النهائي كوليمة عُرس رائعة : « **... لنفرح ولنبتهج ولنمجّده ، لأن عُرس الحَمَل جاء وقته وتزيّنت عروسه ...** » (رؤ ١٩ : ٦-٨) .

لا يُقدِّم اللّه فقط غفراناً ومُصالحةً وشفاء ، لكنه يُريد أن يُقدِّم هبات تكون مصدراً للفرح .

الأمثال الثلاث التي رواها يسوع تشرح لماذا يأكل مع الخطأة، يفرح اللّه ويدعو آخرين كي يفرحوا معه ، يقول الراعي : « **افرحوا معي لأنّي وجدتُ خروفي الضائع** » (لو١٥:٦)، المرأة تقول : « **افرحن معي لأنّي وجدت الدرهم الذي أضعته** » (لو ١٥ : ٩) ، ويقول الأب : « **فنأكل ونفرح لأن ابني هذا كان ميّتاً فعاش وكان ضالاً فوجد** » (لو ١٥ : ٢٤).

اللّه لا يُريد أن يحتفظ بفرحه لنفسه ، هو يُريد أن يشاركه كلّ واحد فرحه .

يفرح اللّه ليس لأن مشاكل العالم قد حُلّت ، وليس لأن آلام البشر وعذاباتهم قد انتهت ، وليس لأن ألوف من الناس اهتدوا وهم يسبحونه لصلاحه . لا ، اللّه يفرح لأن واحداً من أبنائه كان ضالاً فوجد .

وما أنا مدعو إليه أن أدخل في هذا الفرح ، إنه فرح اللّه ، ليس الفرح الذي يُقدِّمه العالم . إنه الفرح الذي يأتي من رؤية طفل يسير نحو بيته وسط كلّ الدمار .

أنا لم أكن مُعتاداً أن أفرح بالأشياء الصغيرة ، وغير الظاهرة، بل أنا متوقِّع ومستعدّ أن أستقبل الأخبار السيئة ، وأن أقرأ عن الحروب والعُنف والجرائم ، وأن أشهد الصراع والفوضى ، وأتوقّع من زوّاري أن يتحدّثوا عن مشاكلهم وآلامهم ونكساتهم وخيبات آمالهم واكتئابهم وعذابهم . بطريقةٍ ما أصبحتُ مُعتاداً على العيش في الحزن ، وهكذا فقدتُ العيون التي ترى الفرح والآذان التي تسمع البهجة الآتية من اللّه والموجودة بطريقةٍ خفيّة في العالم .

لي صديق مرتبط جداً باللّه ، وهو قادرٌ أن يرى الفرح حيثما أتوقّع الحزن ، وهو يُسافر كثيراً ويُقابل أناساً عديدين ، وعندما يرجع للوطن ، أتوقّع دائماً منه أن يُخبرني عن الموقف الاقتصادي الصعب للبلاد التي زارها، وعن الظُلم الشديد الذي سمع عنه ، والألم الذي رأه ، وهو واعٍ جداً للاضطراب الذي يعيش فيه العالم .

وعندما يُشارك بخبراته ، يتحدّث عن الأفراح الخفيّة التي اكتشفها ، يتحدّث عن رجلٍ أو إمرأة أو طفل جلب له الرجاء والسلام . هو يتحدّث عن مجموعاتٍ صغيرة من أشخاصٍ أوفياء الواحد للآخر في وسط كلّ الاضطراب . هو يُخبِر عن روائع اللّه الصغيرة . أحياناً ، أُدرك أنني مُحبَط لأنّي أريد أن أسمع أخبار الصُحف ، وقصص مُثيرة ومُبهِجة ، أستطيع أن أتحدّث عنها فيما بين الأصدقاء . لكنه لم يستجب أبداً لاحتياجي للإثارة ، بل يظلّ يقول : « رأيتُ شيئاً ما صغيراً جداً وجميلاً جداً ، أعطاني فرحاً كبيراً » .

ولا بدّ لي من أن أتعلّم من ذلك . يجب عليَّ أن أتعلّم اكتشاف الفرح الحقيقي ، لكي نُقدِّمه للآخرين كي يُشاركونا .

نعم . أعرف أن الجميع لم يهتدوا بعد ، وأنه لا يوجد سلام بعد في كلّ مكان . وأن الآلام لم تختفِ بعد ، لكني ما زلتُ أرى أناساً يتحوّلون ويعودون إلى البيت : أسمع أصواتاً تُصلّي ؛ أرى لحظات مغفرة . وأشهد على العديد من علامات الرجاء . لا يجب عليَّ ان أنتظر حتّى يُصبح الجميع على ما يُرام ، لكن أستطيع أن أحتفل بكلّ لمحة صغيرة للملكوت . إن هذا هو التدريب الحقيقي .

إنه يتطلّب اختياراً للنور حتّى عندما يوجد الكثير من الظُلمة ، اختيار الحياة حتّى عندما تكون قوى الموت واضحة جداً ، واختيار الحقيقة حتّى عندما أُحاط بالكذب . إنني مُعرّض لتجربة أن أكون مضغوطاً بالأحزان .

إن مكافأة اختيار الفرح هو الفرح نفسه ، والعيش بين أناس ذوي إعاقة عقليّة أقنعني بهذا . هناك الكثير جداً من الرفض والألم والجروح فيما بيننا ، لكن عندما نختار أن نُعلن الفرح الخفي في وسط الآلام ، تُصبح الحياة احتفالاً . الفرح لا يتنكّر أبداً للأحزان ، لكنه يحوّلها إلى تُربةٍ خصبة لفرحٍ أكبر .

بالتأكيد سوف أُدعى ساذجاً وغير واقعي وعاطفي ، وسوف أُتّهم بتجاهل حقيقة المشاكل الناتجة عن شرور الأنظمة التي تُسبّب كثيراً من البؤس البشري .

لكن اللّه يفرح بخاطئٍ واحد يتوب ويعود . إحصائيّاً هذا ليس شيّقاً ، لكن بالنسبة للّه ، لا يهتمّ بالأعداد على الاطلاق . مَن يدري لعلّ العالم قد حُفظ من الدمار بسبب شخصٍ أو إثنين أو ثلاثة يستمرّون في الصلاة ، بينما غالبيّة البشر فقدت الرجاء وبدّدت نفسها .

من منظور اللّه ، فِعل توبة خفي ، وإماءة صغيرة لحبٍّ صادق، لحظة واحدة لغفرانٍ حقيقي ، هو كلّ ما هو مطلوب ليجعل اللّه يركض نحو ابنه العائد وتمتلئ السموات بأصوات الفرح الإلهي .

لا يخلو من الحزن

إذا كانت هذه هي طريقة اللّه ، فأنا في تحدّي لأن أترك كلّ أصوات الموت والخطيئة المُميتة التي تُغرقني في الاكتئاب ، كي أسمح للفرح الصغير أن يكشف لي عن حقيقة العالم الذي أعيش فيه .

عندما يتكلّم يسوع عن العالم ، وقد كان واقعيّاً جدّاً ، فهو تكلّم عن الحروب والثورات والزلازل والكوارث والمجاعات والاضطهاد والسجن والخداع والكراهية والاغتيالات ، لم يقُل إطلاقاً إن علامات الظُلمة هذه سوف تغيب أبداً .

لكن في وسط كلّ هذا ، لا يزال هناك إمكانيّة أن يكون فرح اللّه هو فرحنا. إنه الفرح بالانتماء إلى أهل بيت اللّه حيث الحبّ أقوى من الموت ، والذي يُعطينا إمكانيّة أن نكون في العالم بينما ننتمي بالفعل لملكوت الفرح .

هذا هو سرّ فرح القدّيسين : من القدّيس أنطونيوس أبو الرهبان إلى القدّيس فرنسيس الأسيزي إلى الأخ روچيه في تيزيه إلى الأم تريزا بكلكوتا ، إن الفرح هو العلامة لشعب اللّه . هذا الفرح يُمكن أن يُرىَ في وجوه العديد من البسطاء والفقراء ، والمتألّمين الذي يعيشون في الوقت الحاضر الاضطرابات الكبيرة اقتصاديّاً واجتماعيّاً ، لكن يقدرون أن يسمعوا الموسيقى والرقص في بيت الآب . أنا بنفسي أرى هذا الفرح كلّ يوم في وجوه المُعاقين ذهنيّاً في جماعتي .

كل أولئك الرجال والنساء القدّيسين ، سواء عاشوا في الماضي أو في وقتنا الحالي ، يُمكن التعرّف على الكثير من التصرّفات الصغيرة التي تحدث كلّ يوم وتفرِّحهم مع الآب . هم بطريقةٍ ما فهموا المعنى الحقيقي للفرح .

بالنسبة لي ، إنه من المُدهِش أن نختبر يوميّاً الاختلاف الجذري ما بين التشاؤم والفرح .

يسعى المتشائمون للظُلمة أينما ذهبوا ، هم يشعرون دائماً بقُرب الخطر ، والدوافع والمخطّطات الخفيّة ، هم يسمّون الثقة سذاجة ، والرعاية رومانسيّة ، والمغفرة موقف عاطفي . إنهم يسخرون من الحماس ، ويتهكّمون على الحماس الروحي ، ويحتقرون السلوك الكاريزماتيكي .

الأشخاص الذين توصّلوا لمعرفة فرح اللّه لا يُنكرون الظُلمة ، لكنهم اختاروا ألاَّ يعيشوا فيها . هم يؤمنون أن النور الذي يُضيء الظُلمة يُمكن الوثوق به أكثر من الظُلمة نفسها ، وأن قليلاً من النور يُبدّد الكثير من الظلام . ويشيرون إلى بعضهم البعض بومضات النور هنا وهناك ، ويذكّرون بعضهم البعض بأنهم يكشفون عن حضور اللّه الخفي ولكن الحقيقي .

يكتشفون أنه يوجد أناس يُضمّدون جروح بعضهم البعض ، يغفرون خطايا الواحد للآخر ، يتشاركون في ممتلكاتهم ، يُعزّزون الروح الجماعيّة ، يحتفلون بالهدايا التي استقبلوها ، يعيشون في ترقّب مستمرّ للتحقيق الكامل لمجد اللّه .

كلّ لحظة وكلّ يوم لديَّ فرصة أن أختار ما بين التشاؤم والفرح ، كلّ فكرٍ يُمكن أن يكون متشائماً أو فرِحاً ، كلّ كلمة أقولها يُمكن أن تكون متشائمة أو فرِحة ، كلّ تصرّف يمكن أن يكون متشائماً أو فرِحاً .

على نحوٍ متزايد أعي كلّ تلك الاختيارات المُمكنة ، وأكتشف بوضوح أن اختيار الفرح يؤدّي إلى المزيد من البهجة ، ويُقدِّم أكثر من سبب ليجعل الحياة احتفالاً حقيقيّاً في بيت الآب .

عاش يسوع هذا الفرح كاملاً في بيت الآب ، فيه نستطيع أن نرى فرح أبيه ، وهو يقول : « **وكلّ ما هو للآب هو لي** » (يو ١٦ : ١٥) ، بما في ذلك فرح اللّه الذي بلا حدود . هذا الفرح الإلهي لا يلغي الحُزن الإلهي . في عالمنا ، الفرح والحزن يستبعد الواحد الآخر . هنا، الفرح يعني غياب الحزن ، والحزن هو غياب للفرح. لكن تمييز من هذا القبيل لا وجود له في اللّه.

يسوع ، ابن اللّه ، كان رجل أحزان ، لكنه أيضاً رجل الفرح الكامل . نحن نرى هذا عندما ننظر إلى يسوع في وسط آلامه ، ونرى أنه لم ينفصل إطلاقاً عن أبيه . وحدته مع اللّه لم تُكسَر أبداً حتّى عندما شعر أنه متروكٌ من الآب .

يُريدني يسوع أن يكون لي ذات الفرح الذي له : « **أنا أحبُكم مثلما أحبّني الآب ، فاثبتوا في محبّتي . إذا عملتم بوصاياي تثبتون في محبّتي ، كما عملتُ بوصايا أبي وأثبت في محبته . قُلتُ لكم هذا ليدوم فيكم فرحي ، فيكون فرحكم كاملاً** » (يو ١٥: ٩ - ١١) .

نادراً ما وُجِدت في حياتي لحظةٌ لم أُجرَّب فيها بالحزن والغمّ والسخرية والأفكار الكئيبة والشكوك المرَضيّة وموجات من الكآبة . وكثيراً من الأحيان ما حجب هذا عنّي الفرح الذي في بيت الآب .

لكن عندما أؤمن حقّاً أنني رجعتُ ، وأن أبي قد ألبسني حُلةً جديدة وخاتماً وحذاءً ، أقدر أن أنزع قناع الحزن من قلبي وأزيل الكذب من داخلي ، وأعلن الحقيقة بالحريّة الداخليّة التي لأبناء اللّه .

عندما رجع الابن الضال للبيت ، عاد لا ليبقى طفلاً ، لكن ليعلن بنوّته ، وكابن اللّه العائد المدعو لأن يستردّ مكانته في بيت أبيه ، ويواجه التحدّي . إنه مدعو لأن يصير أباً .

إنني خائف من هذه الدعوة . لمدّةٍ طويلة كنتُ أُدرك بأن العودة لبيت أبي هي الدعوة الأساسيّة . لقد استغرق منّي الكثير من العمل الروحي لأجعل الابن الأكبر وكذلك الابن الأصغر فيَّ يتغيران ويستقبلان حُبّ الآب . والحقيقة هي أن ، على مستوياتٍ عديدة ، لا زلتُ أعود ، لكن كلّما اقتربتُ من البيت كلّما أصبح واضحاً أن هناك دعوةً أبعد من الدعوة إلى العودة . إنها الدعوة لأن أصبح الأب الذي يُرحِّب بأبنائه العائدين للبيت ، ويدعوهم إلى الاحتفال . بعد استعادة بنوّتي ، الآن لا بدّ وأن أُعلن الأبوّة .

عندما رأيت لوحة رامبرانت الابن الضال للمرّة الأولى ، لم أحلم على الإطلاق بأن أصير الابن التائب التي هي خطوة في الطريق لأصبح الأب الذي يُرحِّب . أرى أن هذين اليدين اللّتين تغفران ، تُعزّيان ، تشفيان ، وتُقدّمان وجبة احتفاليّة يجب أن تكون يديَّ ، أن أصير أباً ، إن هذا بالنسبة لي نتيجةٌ مفاجئة للتفكير في لوحة رامبرانت .

الخاتمة

كونوا رحماء

« كونوا رحماء كما أن الله أباكم رحيم » .

(لو ٦ : ٣٦) .

الخطوة الأساسيّة

عندما رأيتُ للمرّة الأولى تفاصيل لوحة الابن الضال لرامبرانت ، بدأتُ في مسيرةٍ روحيّةٍ قادتني لأكتب هذا الكتاب. وها أنا الآن وصلتُ للخاتمة ، فاكتشفت كمّ الزمن الذي استغرقته في المسيرة .

منذ البداية كنتُ على استعداد ليس فقط لقبول الابن الضال ، لكن أيضاً الابن الأكبر وهذا كشف لي جانباً هامّاً في مسيرتي الروحيّة .

لمدّةٍ طويلة ظلّ الأب هو « الآخر » ، الشخص الذي يستقبلني، يغفر لي ، يُرجعني إلى البيت ، ويُعطيني السلام والفرح . حضن الآب هو المكان الذي أعود إليه ، الهدف لمسيرتي الروحيّة ، مكان الراحة النهائي .

لقد كان مؤلماً وتدريجيّاً الوصول إلى إدراك حقيقة أن مسيرتي الروحيّة لن تصير كاملةً أبداً طالما ظلّ الأب في الخارج .

كلّ ما تعلمتهُ عن حُبّ الآب لم يُساعدني على التخلّي عن الشعور بوجود سُلطةٍ أعلى منّي يُمارسها عليَّ اللّه طبقاً لإرادته .

بطريقةٍ أو بأخرى ، كان حُبّ اللّه ، بالنسبة لي ، محدوداً بسبب خوفي من سُلطته ، وأنه من الحكمة أن أحافظ على مسافةٍ حذرةٍ حتّى على الرغم من رغبتي في الاقتراب منه .

أعرف أنّي أُشارك هذه الخبرة مع آخرين لا يُحصى عددهم . لقد رأيتُ كيف أصبح الخوف من انتقام اللّه وعقابه قد شلّ الحياة العقليّة والعاطفيّة لكثيرٍ من الناس ، رغم اختلاف أعمارهم ، وأديانهم ، وأساليب حياتهم . هذا الخوف المعوِّق من اللّه هو أحد مآسي البشر الكُبرى .

لوحة رامبرانت ومأساة حياته هيّأت لي الفرصة لاكتشاف هذه المرحلة الأخيرة للحياة الروحيّة ، وتتمثّل في تَرْك كلّ خوفٍ من الآب ، وبهذا يُصبح من الممكن أن نصير مثله .

طالما نخاف من الآب فسيظلّ في الخارج ، ولن يستطيع السُكنى بداخلي . لكن لوحة رامبرانت ، التي أظهرت لي حنان الآب في أقصى درجاته ، جعلتني أكتشف بأن دعوتي النهائيّة هي أن أصبح مثل الآب ، وأن أعيش رحمته الإلهيّة في حياتي اليوميّة .

على الرغم من أنني أرى نفسي في الابنين الأصغر والأكبر ، إلاَّ أنّي مدعو لاتجاوزهما وأصبح مثل الأب .

لا يُمكن أن يكون هناك أب وأمّ دون أبناء ، لكن على الأبناء أن يختاروا بوعيٍ الذهاب أبعد من طفولتهم ، ويصيروا آباء وأمّهات للآخرين . وهي الخطوة الأساسيّة لإتمام المسيرة الروحيّة .

على الرغم من أن رامبرانت لم يضع الأب في مركز اللّوحة ، إلاَّ أنهُ من الواضح أن الأب هو الشخص المركزي فيها ، منه تأتي كلّ الأنوار ، وإليه يذهب كلّ الانتباه .

لقد كان رامبرانت أميناً لمَثَل الابن الضال ، هذا المَثَل المقصود منه أن نُعطي اهتمامنا الأساسي إلى الآب قبل أيّ شخصٍ آخر .

أنا مُندهشٌ لطول الوقت التي استغرقته لأضع الأب في مركز اهتمامي . لقد كان من السهل عليَّ أن أجد نفسي في الابنين . تمرّدهما الداخلي والخارجي مفهوم إنسانيّاً . وهذا يحدث غالباً عند التفكير في المَثَل أو النظر إلى اللّوحة .

من الصعب أن أرى أي شيء آخر . نحن جميعاً مُشتركون بدرجةٍ أو بأخرى في كلّ أشكال الانكسار الإنساني . فلا الطمع ولا الغضب ، ولا الشهوة ، ولا الاستياء ، ولا الطيش ، ولا الغيرة يغيبون تماماً عن أي شخصٍ منّا .

انكساراتنا الإنسانيّة تظهر في التصرّف العملي ، لكن لا توجد أي إساءة أو جريمة أو حرب ، إن لم يكن لها بذور في قلوبنا .

لماذا أتحدّث كثيراً عن مشابهتي للابنين ، بينما السؤال الحقيقي : هل أنا مُهتمّ بأن أكون مثل الأب ؟

أشعر بارتياح لمشابهتي الابنين ، بالإضافة إلى سهولة فهم الوضع ، ولكن الصعوبة الحقيقيّة أن أكون مثل الأب الذي يغفر ويُرحّب بالآخرين في البيت ، وليس فقط مثل الشخص المغفور له أو الذي يستقبل الرحمة ، بل الشخص الذي يُقدِّمها .

أليس هناك ضغوطٌ خفيّة في الكنيسة والمجتمع لكي نظلَّ أطفالاً معتمدين على غيرنا ؟

ألم تكن الكنيسة في الماضي تُشدّد على الطاعة بطريقةٍ يصعب معها بروز حالة الأبوّة الروحيّة ؟ ألا يُشجّع مجتمعنا الاستهلاكي على إشباع الرغبات الذاتيّة الطفوليّة ؟ مَن الذي يُشجّعنا حقّاً على تحرير أنفسنا من الاعتماديّة غير الناضجة وقبول مسؤوليّاتنا كبالغين ؟ ألم نُحاول الهرب باستمرار من المُهمّة المُخيفة للأبوّة ؟

لقد كان هذا موقف رامبرانت بعد الكثير من الألم والمعاناة ، وعندما أقترب من الموت ، كان قادراً على فهم وتصوير الأبوّة الروحيّة الحقيقيّة .

ربّما من أكثر التعبيرات الجذريّة التي قالها يسوع هي : « **كونوا رحماء كما أن الله أباكم رحيم** » (لو ٦ : ٣٦) .

لم يقصد يسوع أن يصف رحمة اللّه ليوضّح لي مشاعر اللّه تجاهي ، أو غفرانه لخطاياي ، أو منحي السعادة والحياة الجديدة ، لكن لكي يدعوني لأصير مثل اللّه وأُظهِر نفس الرحمة للآخرين كما يُظهرها لي .

إذا كان هدف المَثَل إظهار أن الناس يُخطئون واللّه يغفر لهم، أستطيع بسهولة التفكير في خطاياي كفرصةٍ سانحة للّه أن يُظهِر لي غفرانه . وهكذا سيكون هذا التفسير سطحيّاً .

أودّ تَرْك نفسي لضعفاتي على أمل أن اللّه سيغفر لي مهما فعلت. هذه الرومانسيّة العاطفيّة لا تُمثِّل رسالة الإنجيل ، بل أنا مدعو لأن أكون ابناً لأبي الرحيم .

أنا وريث ، قالها بوضوح القدّيس بولس عندما كتب : « **هذا الروح يشهد مع أرواحنا أننا أبناء اللّه . وما دُمنا أبناء اللّه ، فنحن الورثة : ورثة اللّه وشركاء المسيح في الميراث ، نُشاركه في آلامه لنُشاركه أيضاً في مجده** » (روم ٨ : ١٦-١٧) .

حقّاً كابنٍ أُصبح وريثاً . أقدِّم للآخرين نفس الرحمة التي قدَّمها لي الآب . العودة إليه هي جوهريّاً التحدّي بأن أُصبح شبيهاً به . هذه الدعوة تمنع أي تفسيرٍ سهل للقصّة .

أعرف كم أنا مُشتاق للعودة وأن أُعانَق في طمأنينةٍ ، ولكن هل أنا أريد حقّاً أن أكون ابناً ووريثاً مع كلّ نتائج ذلك ؟

إن الوجود في بيت الآب يتطلّب أن أجعل حياة الآب هي حياتي الشخصيّة وأتغيَّر إلى صورته .

منذ عهدٍ قريب ، نظرتُ في المرآة وقد أذهلني كم أشابه أبي كثيراً ، فجأة رأيت الرجل الذي رأيته عندما كان عمري سبعة وعشرين سنة : الرجل الذي أُعجبت به وانتقدته ، أحببته وشعرتُ بالخوف منهُ .

استهلكتُ كثيراً من طاقتي في الاستقلال بحياتي في مواجهة هذا الشخص ، كما فهمتُ أن كلّ الاختلاف الذي كنتُ واعياً له أثناء حياتي بدا صغيراً جدّاً بالمقارنة بالأشياء المتشابهة بيننا .

لقد كانت صدمة عندما أدركتُ أنني حقّاً وريثٌ وخليفة الشخص الذي يُعجَب به ، ويُخاف منه ، ويُمدَح ، ويُساء فهمه من الآخرين ، كما أنني كنتُ أشترك في ذلك أيضاً .

الأبوّة الرحيمة

رَسَم رامبرانت للأب والابن الضال جعلني أفهم بأنني لم أعُدْ محتاجاً لأن أستخدم بنوّتي للحفاظ على مسافتي .

بعد أن عشت بنوّتي إلى أقصى حدّ ، أتى الوقت لكي أخطو خطوةً أبعد من كلّ الحواجز . لا أستطيع البقاء كطفلٍ للأبد ، لا أقدر على الاحتفاظ بهذه الحالة متّخذاً أبي كعذرٍ لحياتي . ولا بدّ لي من أن أجرؤ على مدّ يديَّ بالبركة والرحمة مستقبِلاً أبنائي ، بغضّ النظر عن شعورهم وتفكيرهم فيَّ . أن أصير أباً رحيماً سيكون هو الهدف النهائي لحياتي الروحيّة ، كما عبَّر عنه المَثَل وكذلك اللّوحة .

قبل كلّ شيء ، لا بدّ لي ان أضع في اعتباري الإطار الذي قال فيه يسوع المَثَل : « **كانَ لِرَجلٍ اَبنانِ** » ، وقبل ذلك كتب لوقا : « **وكان جُباة الضرائب والخاطئون يدنون من يسوع ليسمعوه . فقال الفريسيّون ومعلّمو الشريعة متذمّرين : هذا الرجل يُرحِّب بالخاطئين ويأكل معهم** » (لو ١٥ : ١-٢) .

وضعوا شرعيّته كمعلّم في تساؤلٍ ينتقد قُربه من الخطأة ، ردّ يسوع على ناقديه بمَثَل الخروف الضائع ، والدرهم المفقود ، والابن الضال . أراد يسوع أن يوضّح أن اللّه الذي يتكلّم عنه هو إله رحمة يفرح ويُرحّب بالخطأة التائبين داخل بيته .

كان يسوع يتناول الطعام مع أشخاصٍ سيّئي السُمعة ، ولهذا كان تعليمه عن اللّه لا يتعارض مع واقع ما يعيشه في الحياة اليوميّة . إذاً اللّه يغفر للخطأة ، وبالتأكيد الذين يؤمنون باللّه يجب أن يفعلوا بالمِثل . يُرحّب اللّه بالخطأة في بيته ، لذلك على الذين يثقون في اللّه وجب عليهم عَمل هذا بالمِثل . اللّه رحوم فعلى الذين يُحبّون اللّه أن يكونوا رحماء بالمِثل .

اللّه الذي يُعلن عنه يسوع والذي باسمه يتصرّف هو إله الرحمة ، اللّه الذي يُقدِّم نفسه كمثال ونموذج لكلّ السلوك الإنساني . ولكن هناك ما هو أكثر من هذا ، أن تُصبح مثل الآب السماوي ليس مجرّد جانب لتعليم يسوع ، إنه جوهر رسالته . تعاليم يسوع عن الآب جذريّة ، وكلماته تبدو صعبة ومُتطلّبة ، إنها واضحة جداً : هي دعوة عامّة أن نُصبح أبناء وبنات حقيقيّين للّه .

طالما ننتمي لهذا العالم ، سنظلُّ عُرضةً للتنافس والتناحُر ، ونتوقّع المُكافأة عن الأعمال الحسنة التي عملناها . لكن عندما ننتمي للّه الذي يُحبّنا بلا شروط ، يُمكننا أن نعيش كما فعل هو .

الاهتداء الجذري الذي دعى إليه يسوع هو التحوّل من الانتماء للعالم إلى الانتماء للّه .

قبل صَلب يسوع بوقتٍ قصير صلّى لأبيه من أجل تلاميذه قائلاً : « **لأنهم لا ينتمون إلى العالم كما أنا لا أنتمي إلى العالم... إجعلهم كلّهم واحداً ليكونوا واحداً فينا ، أيُّها الآب مثلما أنت فيَّ وأنا فيك ، فيؤمن العالم أنك أرسلتني** » (يو ١٧ : ١٤-٢٢) .

عندما نكون في بيت الآب كأبناء ، نستطيع أن نكون مثله ، نُحبّ مثله ، صالحين مثله ، نهتمّ مثله . لقد أكّد يسوع هذا عندما قال : « **فإن أحببتم مَن يُحبّونكم ، فأي فضلٍ لكم ؟ لأن الخاطئين أنفسهم يُحبّون مَن يُحبّونهم . وإن أحسنتم إلى المُحسنين إليكم ، فأي فضلٍ لكم ؟ لأن الخاطئين أنفسهم يعملون هذا .**

وإن أقرضتم مَن ترجون أن تستردّوا منهم قرضكم ، فأي فضلٍ لكم ؟ لأن الخاطئين أنفسهم يُقرضون الخاطئين ليستردّوا قرضهم . ولكن أحبّوا أعداءكم ، أحسنوا وأقرضوا غير راجين شيئاً ، فيكون أجركم عظيماً ، وتكونوا أبناء اللّه العلي ، لأنه يُنعم على ناكري الجميل والأشرار . كونوا رحماء كما أن اللّه أباكم رحيم » (لو ٦ : ٣٢ - ٣٦) .

هذا هو جوهر رسالة الإنجيل . طريق البشر أن يُحبّوا بعضهم بعضاً ، وهو طريق اللّه .

نحنُ مدعوّون لأن نُحبّ بعضنا بعضاً بنفس الحبّ غير الأناني الذي نراه في رَسْم رامبرانت للأب . الرحمة التي نُريد أن نُحبّ بها لا يُمكن أن تستند على نمط حياة تنافسيّة . يجب أن تكون هذه الرحمة مُطلقة ، لا يوجد فيها أثرٌ للمنافسة . يجب أن تكون المحبّة جذريّة للأعداء .

إذاً نحن ، ليس فقط ، مُرحبٌ بنا من اللّه ، لكن علينا أن نستقبل الآخرين مثله ، يجب علينا أن نرى العالم من خلال عينيّ الآب السماوي .

إن يسوع نفسه هو أكثر أهميّة من المَثَل والتعليم . يسوع هو الابن الحقيقي للآب ، فيهِ يسكن ملء اللّه . كلّ معرفة اللّه ومجده يسكن فيه . وحدته مع الآب كاملةً ، إذ نرى يسوع نرى الآب . « « **فقال له فيلُبُس : يا سيّد ، أرنا الآب وكفانا ... مَن رآني رأى الآب** » (يو ١٤ : ٨-١٠) . إنه مثالنا كي نُصبح آباء .

بيّن لنا يسوع ما هي البنوّة الحقيقيّة . هو الابن الأصغر دون أن يكون متمرّداً ، وهو الابن الأكبر دون أن يكون مستاءً . في كلّ شيء هو مطيعٌ للآب ، لكن لم يكن مُطلقاً عبداً له .

يسمع كلّ ما يقوله الآب لكن هذا لم يجعله خادماً له . فعل كلّ ما أرسله الآب ليفعله ، وظلّ حرّاً تماماً ، أعطى كلّ شيء واستقبل كلّ شيء .

« **فقال لهم يسوع : الحقّ الحقّ أقول لكم : لا يقدر الابن أن يعمل شيئاً من عنده ، بل يعمل ما رأى الآب يعمله . فما يعمله الآب يعمل مثله الابن . فالآب يُحبّ الابن ويريه كلّ ما يعمل ، وسيريه ما هو أعظم ، فتتعجّبون ، فكما يُقيم الآب الموتى ويُحييهم ، كذلك الابن يُحيي مَن يشاء . والآب لا يَدين بنفسه أحداً لأنه جعل الدينونة كلّها للابن ، حتّى يمُجّد جميع الناس الابن ، كما يمجّدون الآب .**

مَن لا يُمجِّد الابن ، لا يُمجِّد الآب الذي أرسله » (يو٥:١٩-٢٣) . هذه هي البنوّة الإلهيّة . وهي ما أنا مدعو لأن أكونها .

سرّ الفداء هو أن ابن اللّه تجسّد لكي يستطيع كلّ أبناء اللّه الضالّين أن يصيروا أبناء وبنات مثل يسوع الابن . من هذا المنظور يأخذ مَثَل الابن الضال أبعاداً جديدة .

يسوع محبوب الآب ، يترك بيت أبيه ليحمل خطايا كلّ الأبناء الضالّين ويرجعهم للبيت .

ومن خلال طاعته التامّة للآب يُقدِّم الشفاء لإخوته وأخواته المُستائين . بواسطته أستطيع أن أصبح ابناً حقيقيّاً ، وكابنٍ حقيقي أقدر أن أنمو لأصير أباً رحيماً مثل الآب السماوي .

كم من سنين حياتي مضت حتّى أكتشفت كم هو شاقٌ وصعب أن أنمو وأصل إلى الأبوّة الروحيّة .

تستبعد لوحة رامبرانت أي علاقة مع السُلطة ، أو النفوذ أو السيطرة . ربّما تعلّقتُ بالوهم أن يوماً ما سيختفي العديد من الرؤساء وأستطيع أخيراً أن أكون رئيساً لنفسي . لكن هذه هي طريقة العالم التي تكون القوّة والسُلطة الاهتمام الرئيسي لها .

ليس من الصعب أن نرى أن أولئك الذين حاولوا مُعظم حياتهم التخلّص من رؤساهم لن يكونوا مختلفين كثيراً عنهم عندما يصلون إلى كراسيهم . الأبوّة الروحيّة ليس لديها علاقة بالسُلطة والسيطرة ، إنها أبوّة رحيمة . ولا بدّ لي من أن أواصل النظر إلى الأب وهو يُعانق ابنه الضال .

أجد نفسي باستمرار ساعياً للحصول على السُلطة ، عندما أُعطي نصيحةً أريد أن تُتَّبَع ، وعندما أُقدّم مساعدةً أريد أن أُشكَر عليها ، وعندما أقرض نقوداً أُريد أن تُستخدم بطريقتي الخاصّة ، وعندما أفعل شيئاً حسناً أريد أن يتذكّره الآخرون .

قد لا أحصل على تكريمٍ أو حتّى يُسجَّل اسمي في لوحةٍ تذكاريّة ، لكنني أهتمّ باستمرار بألاَّ أكون مَنسيّاً ، وبطريقةٍ ما أن أعيش في أفكار وأفعال الآخرين . لكن الأب في مَثَل الابن الضال ليس قلِقاً على نفسه ، حياته المؤلمة الطويلة جعلته يُفرِغ ذاته من رغبته في الاحتفاظ بالسيطرة على الأمور. أبناؤه هم همّه الوحيد ، يُريد أن يُعطي ذاته كاملةً لهم ، ولأجلهم يرغب أن يسكب كلّ ذاته . هل أقدر أن أُعطي دون انتظار المُقابل ، أحبّ دون شروط ؟

إذا أخذنا بعين الاعتبار احتياجاتي الهائلة للتقدير الإنساني والحبّ ، أدركتُ أنه سيكون كفاحٌ طول الحياة كي أتخطّى هذه الاحتياجات ، وأن تخلو حياتي من القلق للحصول على المُقابل .

هل أستطيع الثقة بأن حياتي يُمكن أن تَحمل ثمار روح اللّه ؟ هل هناك طريق لهذه الأبوّة الروحيّة ؟

إذا كان يسوع يدعوني لأن أكون رحيماً مثل أبيه السماوي ، وهو يُقدِّم نفسه كطريقٍ لهذه الحياة ، عندئذٍ لا أستطيع الاحتفاظ بروح المنافسة ، بل تُصبح الكلمة الأخيرة للرحمة ، يجب عليَّ أن أثق بأني قادرٌ أن أصبح الأب الذي أنا مدعو لأن أكونه .

فهرس

رقم الصفحة

❖ قصّة أب وابنيه ٣

❖ **تمهيد** : لقاء بلوحة ٥

❖ **مقدّمة** : الابن الأصغر ، والابن الأكبر ، والأب ٢٣

❖ الجزء الأوّل : الابن الأصغر ٣١

- رامبرانت والابن الأصغر ٣٣
- مغادرة الابن الأصغر ٤٠
- عودة الابن الأصغر ٥٨

❖ الجزء الثاني : الابن الأكبر ٨٣

- رامبرانت والابن الأكبر ٨٤
- مغادرة الابن الأكبر ٩٠
- عودة الابن الأكبر ١٠٧

رقم الصفحة

❖ الجزء الثالث : الأب ١٢٣

- رامبرانت والأب ١٢٤

- ترحيب الأب بالعائدين ١٣٢

- دعوة الأب للاحتفال ١٤٤

❖ خاتمة : كونوا رحماء ١٥٩

مجلس البطاركة
والأساقفة الكاثوليك
بمصر

معهد التربية الدينية

سلسلة كتيبات نور على الطريق

١٣

عودة الابن الضال

إلى الذيّن يتساءلون : (أين الطريق؟)، وإلى الذيّن (فى الطريق) وكانت لديهم شجاعة الشروع في مسيرة روحية ، لكنهم يبحثون عن إضاءة كي يستكملوا مسيرتهم .

من أجل كل هؤلاء كتب الأب (هنري نوين) هذا الكتاب متأمّلاً في مثل الابن الضال، وفي اللوحة التي رسمها الفنّان (رامبرانت) للمَثَل نفسه. وقد كان الأب (هنري نوين) راعياً للآرش في تورنتو بكندا كما كان كاتباً متميزاً ومُحاضراً ذائع الصيت، وقد تنيح عام ١٩٦٩.

إنّه كتابٌ قيّم يحوي خبرة روحيّة شخصيّة عميقة، ويُساعد كلّ من يقرأه على أنٍّ يذهب بعيداً في حياة التوبة التي تقودنا إلى العودة على مثال الابن الضال ، ومقاومة الإستياء والرفض الذي كان لدى الابن الأكبر ، وصولاً إلى الصفح والحب على مثال الأب .

نور على الطريق

معهد التربية الدينية

مطبوعات نور على الطريق